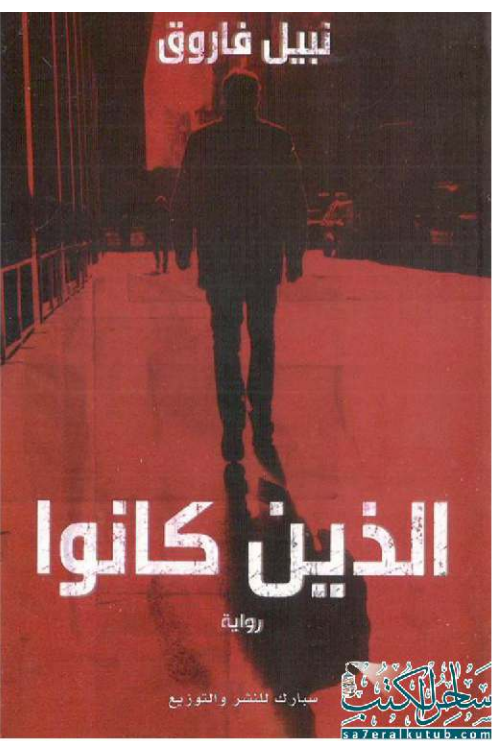

نبيل فاروق
الذين كانوا
رواية
سبارك للنشر والتوزيع
سحر الكتب
sa7eralkutub.com

د. نبيل فاروق

الذين كانوا

رواية

سبارك للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

"كما بدأنا أوّل خلق نعيده"

صدق الله العظيم

الفصل الأول

ارتفع عواء ذئب برى من بعيد؛ ليضيف رهبة نمطية على ذلك القصر القديم، الذى بدا على ضوء البدر المكتمل أشبه بأطلال تاريخية، يلقى عليها ضوء القمر الفضى ظلالاً مخيفة، جعلتها أشبه بمشهد تقليدى، فى واحد من أفلام الرعب القديمة...

وعبر ممرات القصر، التى انتشرت الرطوبة والطحالب الخضراء فى جدرانها، كان الظلام هو الملك المتوَّج، الذى يسيطر على كل شئ، بدءاً من صالة الاستقبال القديمة، وحتى تلك القاعة، التى، وعلى الرغم من أنها فى منتصف القصر تماماً، كان ينبعث منها ضوء متردِّد، أشبه بذلك الذى ينبعث من عدة أجهزة تلفاز، فى قاعة مظلمة...

ولم تكن تلك القاعة خالية...

كان هناك عدد غير قليل من الرجال والنساء، يتحرَّكون فى خفة ونشاط، حريصون على عدم تبديد شبه الصمت المحيط بهم، وهم ينشرون أجهزة حديثة، تتنافس تماماً مع العراقة المحيطة بهم، وبعضهم يجلس أمام شاشات متوسطة، ويضع على أذنيه أجهزة استماع دقيقة، فى حين كانت هناك امرأة تعمل على لوحة أزرار، أمام جهاز يشبه شاشة الرادار، مع اختلاف ألوان الظلال عليه...

وفى منتصف القاعة تقريباً، كان هناك رجل ملتح، يقف صامتاً، وكل اهتمامه مركَّز على جهاز صغير فى يده، له شاشة بحجم ثلاث بوصات، ترتسم فوقها موجات منتظمة، ذات ألوان طيفية متعدِّدة...

كانت عينا الملتح تراقبان تلك الموجات فى اهتمام وتركيز عاليين، والموجات تتوالى فى انتظام...

وتتوالى...

وتتوالى...

ثم فجأة، اختلت تلك الموجات فى منتصفها، وبدا وكأن موجة إضافية قد

انبعثت من مركز الشاشة تماماً...

وارتجف جسد الملتح فى قوة، وأشار بيده إشارة صارمة حازمة، تجمَّد لها الكل فى أماكنهم، فى حين راح هو يتراجع بظهره فى حذر، وكأنما يخشى إفساد تلك الموجة الدخيلة، قبل أن يقف خلف إحدى الشاشات، ويراقبها فى اهتمام، ناقلاً بصره بينها وبين منتصف القاعة فى حركة شبه عصبية...

وعلى الشاشات، ظهرت بقعة حمراء، جعلت الجميع يحبسون أنفاسهم، وهم ينظرون إلى القاعة، التى لم يبد عليها أى تغيير، على عكس صورها على الشاشات المختلفة...

ومع تصاعد نبضات الملتح، الذى بدا من الواضح أنه يرأس ذلك الفريق العلمى، ظهرت دائرة حمراء وسط شاشاته، راحت تتسع وتتسع، حتى استقر حجمها...

ثم قفزت قلوب الكل فى انفعال...

فمن وسط تلك الدائرة، ظهر ظل داكن...

ثم ثان...

وثالث...

ورابع...

أربعة ظلال شبه بشرية، عبرت تلك الدائرة الحمراء، ووقفت أمامها ساكنة، وكأنها تتطلع بدورها لذلك الفريق العلمى...

ومع تلك الارتجافة، التى تصرُّ على التواصل، داخل جسد الملتح، رفع عينيه من الشاشة إلى منتصف القاعة...

كانت الظلال ودائرتها الحمراء شديدة الوضوح على الشاشة، ولكن لم يكن لها أى وجود فى القاعة، بالنسبة للرؤية العادية...

وفى توتر، همّت إحدى الباحثات بقول شئ ما، يعبِّر عن التوتر الشديد فى أعماقها، ولكن الملتح استوقفها بإشارة صارمة من يده، خاصة وأن أحد تلك الظلال بدأ يتقدَّم بالفعل، نحو آلات التصوير الطيفية، التى تحيط بالمكان، حتى صار فى منتصف المسافة تقريباً، بينها وبين تلك الدائرة الحمراء، ثم

توَّقف، وراح يدور حول نفسه فى بطء، وكأنما يمنح آلات التصوير فرصة التقاط صورته، من كل الجوانب....

وفى انبهار، حدَّق الكل فيما يفعله، والذى كان يبدو إرادياً بحتاً، يشف عن فهمه الكامل لما يحدث...

وبعد أن دار ذلك الظل حول نفسه دورة كاملة، وقف ثابتاً أمام الكاميرات، ثم رفع يده، وحرَّكها فى الهواء حركة عجيبة، لم يفهم أحد الباحثين معناها، قبل أن يستدير، ويعود إلى الظلال الثلاثة الأخرى، ويعود الجميع إلى تلك الدائرة الحمراء، ثم يختفون داخلها...

وفى بطء، صغرت الدائرة الحمراء وصغرت...

ثم اختفت تماماً...

ولثوان بعد اختفائها، حبس الجميع أنفاسهم، وكأنهم لم يستوعبوا بعد ما شاهدوه على شاشاتهم، وما سجلته أشرطتهم الرقمية...

ثم تنحنح الملتح...

نحنحة وحدها كسرت حالة الذهول والانبهار، قبل أن يتحرَّك فى خفة، نحو منتصف القاعة، ويلقى نظرة على شاشة الجهاز الصغير فى يده، والتى عادت تنقل تلك الموجات المنتظمة...

وحدها...

وهنا، اعتدل الملتح فى ارتياح، ثم رفع يده الحرة بعلامة النصر؛ ليحطم حالة الصمت المأخوذ...

ومع إشارته انطلقت الهتافات الظافرة، والتهبت الأكف بالتصفيق، واندفعت باحثة شابة نحو الملتح، وصافحته فى حرارة، فى حين تنفَّس هو الصعداء، والتقط نفساً عميقاً، وقد علت شفتيه ابتسامة كبيرة....

ابتسامة ظافرة...

جداً...

***

تثاءب ذلك السائق الفرنسي في إرهاق، وهو يقود سيارة النقل الثقيلة، عبر ذلك الطريق الطويل، بين مدينتي (ليل) و(كاليه)...

كانت الظروف الاقتصادية قد دفعته للعمل بضعف جهده المعتاد، منذ ثلاثة أيام، مما أورثه حالة من الإرهاق لم يشعر بها من قبل، ولكنه قاومها...

قاوم...

وقاوم...

وقاوم...

ثم لم يستطع الاحتمال أكثر...

ولأن الطريق أمامه يطول، قرَّر أن يتوقَّف لنصف الساعة؛ ليحظى بقدر من النوم، يعيد إليه بعض نشاطه وحيويته...

وعلى جانب الطريق أوقف سيارته، وتثاءب مرة أخرى، ثم أعاد مسند مقعده إلى الوراء، وتراجع بدوره مسترخياً، و...

وفجأة، سطع ذلك الضوء القوى في وجهه...

رفع ذراعه في حركة تلقائية؛ ليحمى عينيه من الضوء الساطع، الذى تصوَّر في البداية أنه ضوء سيارة قادمة، تنطلق في الاتجاه المعكسى...

ولكنه، وقبل حتى أن يفتح عينيه، أدرك أنه مخطئ...

فالضوء الساطع في وجهه، لم يكن ذلك الضوء الأصفر التقليدى لمصابيح السيارات...

بل كان ضوءً أحمر اللون...

ضوء لا يمكن أن تستخدمه سيارة عادية...

وعلى الرغم من إرهاقه، ومن الضوء الساطع، فتح عينيه، محاولاً فهم ما يحدث أمامه...

وبقدرته المحدودة على الرؤية، شاهد ما يشبه الظلال، التى تخرج في طابور منتظم، من بقعة ضوء حمراء كبيرة...

وارتجف جسده...

وقلبه...

وإحساسه...

ولثانية أو ثانيتين، حدَّق فى تلك الظلال....

ولكن فجأة اختفى كل شئ...

الضوء الأحمر...

والظلال...

اختفت كلها، وكأنها لم تكن...

وارتجف جسده مرة أخرى، وقد اتسعت عيناه فى رعب...

إنها أشباح حتماً...

أشباح تمرح فى تلك البقعة المقفرة...

أدار محرِّك سيارته فى عصبية، وفكرة أخرى تثب إلى رأسه...

أهو حلم ؟!...

هل استغرق فى النوم دون أن يدرى، وحلم بهذا الأمر العجيب ؟!...

هل ؟!..

كانت الفكرة تعربد فى رأسه، وهو يدير المحرِّك...

ولكن المحرِّك لم يستجب...

كل أضواء السيارة لم تستجب...

حاول أكثر من مرة...

حاول...

وحاول...

وحاول ...

ولم يستجب شيئاً...

وهنا استعاد ذهنه الكثير مما قرأه وسمعه وشاهده فى الأدب والسينما...

وسيطرت فكرة ثالثة على رأسه...

ما رآه لم يكن حلماً...

ولم يكن أشباحاً...

إنها كائنات...

كائنات من عالم آخر...

عالم فى أعماق الفضاء ...

مع قوله، تلقى صدمة جديدة...

وعاد جسده يرتجف...

وبمنتهى العنف...

***

"من (سى-١٧) إلى (هيوستن)... تم إنزال جميع معدات (لونا-١) الأولية... كرات الليزر تحدد الموقع للشحنات التالية... حوّل"

نقل رائد الفضاء الأمريكى تلك الرسالة، إلى قاعدة (هيوستن) الأرضية، وهو يسير على سطح القمر، فى تلك البقعة شمال بحر العواصف، والتى تم اختيارها لتركيب أوّل محطة قمرية ثابتة دائمة...

كان الخبر مبهجاً، بالنسبة للعلماء فى (ناسا)[1]؛ حيث كانت تلك المعدات الأولية هى الركيزة الأساسية؛ لوضع قواعد المحطة القمرية، وضمان سلامة تركيباتها التالية...

وعبر جهاز الاتصال، المثبت فى خوذته الفضائية، استمع (سى-١٧) إلى صيحات الظفر وهتافات السعادة، التى وصلته من المحطة الأرضية، فاتسعت ابتسامته، وهو يتطلع إلى سطح القمر الممتد أمامه، و...

وفجأة، اتسعت عيناه عن آخرهما...

وانطلقت من حلقه شهقة قوية...

---

(1) ناسا: (NASA)؛ وكالة الفضاء والطيران الأمريكية.

ولولا واجهة الخوذة الزجاجية، لفرك عينيه من فرط ذهوله...

فهناك...

على مسافة مائتى متر منه تقريباً...

وعلى سطح القمر...

كان هناك رجل يمشى...

ليس رائد فضاء يرتدى حلة واقية مثله...

بل رجل عادى...

رجل يرتدى حلة خفيفة، من قطعة فضية واحدة...

دون قفازين سميكين...

أو خزان أكسجين...

أو حتى خوذة واقية...

رجل عادى، يسير هادئاً مبتسماً، كما لو أنه على سطح الأرض، ويتجه نحوه مباشرة...

كانت ابتسامته ودودة، كما لو أنه يرسل إليه رسالة بصرية، تعنى أنه لا ينتوى به شراً...

"ماذا يحدث عندك يا (سى-١٧) ؟!... لماذا هذه الشهقة ؟!...."

سمع السؤالين عبر خوذته، فغمغم ذاهلاً مأخوذاً:

- لن يمكنكم أبداً تصديق ما أراه أمامى.

أتاه الجواب مفعماً بالتوتر والقلق:

- صف ما تراه أمامك يا (سى-١٧).

ازدرد لعابه فى صعوبة، وهو يتابع ذلك الرجل يقترب بابتسامته، وأجاب فى صوت مبحوح:

- رجل.

حمل الصوت إليه كل الدهشة.

- رجل !؟... هل تعنى رائد فضاء آخر؟!
هزَّ رأسه فى شحوب، مغمغماً:
- بل رجل.
مضت لحظة من الصمت، قبل أن يهتف صوت آخر، من المحطة الأرضية:
- اتصال بصرى .... نريد اتصالاً بصرياً يا (سى-١٧).
ولكن (سى-١٧) لم يجب...
كان لسانه قد انعقد تماماً، بعد أن صار ذلك الرجل على قيد متر واحد منه...
وهناك توقَّف...
لم تختف ابتسامته، وهو ينظر إلى عينى رائد الفضاء الأمريكى مباشرة...
"(سى-١٧).... أجب يا (سى-١٧)... "...
فى تلك اللحظة، التى استقبل فيها رائد الفضاء ذلك الاتصال القلق، من القاعدة الأرضية، كان يتفرَّس بكل التوتر وجه ذلك الرجل العجيب وعينيه وابتسامته الثابتة...
ليس هناك من شك...
إنه ليس رجلاً آلياً...
ليس بالمقاييس المعروفة على الأرض على الأقل...
وفى هدوء شديد، كشف ذلك الرجل جزءاً من ساعده الأيسر، واستخدم إظفر يده اليمنى؛ لينزع قشرة جلدية رقيقة من ساعده، وضعها فى مظروف يحوى ورقة مطوية، وناول المظروف لرائد الفضاء، الذى التقطه فى تلقائية ذاهلة...
"(سى-١٧)... أجب.... أجب للأهمية القصوى...."
إنتبه فى هذه اللحظة فقط للنداء المتواصل، فانتفض جسده، وقال بكل الانفعال فى أعماقه:
- من (سى-١٧) إلى (هيوستن)... الأمر لن يمكنكم تصديقه أبداً...

استدار الرجل فى هذه اللحظة، وابتعد متجهاً نحو تبة قريبة، فى نفس الوقت الذى هتف فيه مسئول (هيوستن) :

- أشعل الاتصال البصرى يا (سى-١٧)... دعنا نرى ما تراه...

فى نفس اللحظة التى ضغط فيها (سى-١٧) زر الاتصال البصرى، كان ذلك الغامض يدور حول التبة، قبل أن يختفى خلفها...

ولكن أجهزة الاستقبال فى (هيوستن) التقطت الثانيتين الأخرين، قبل اختفائه... وفى القاعدة الأرضية سادت حالة من ذهول..

ذهول بلا حدود...

على الإطلاق.

الفصل الثانى

فرك (شريف فؤاد)، محلل الكمبيوتر فى وكالة (ناسا) الفضائية عينيه[1]، وهو يشعر بالإرهاق فى كل خلية من جسده، بعد عشرين ساعة متواصلة، قضاها فى استخدام برنامج خاص؛ لإجراء تحليل طيفى مباشر، لكل جرم سماوى، يلتقطه تليسكوب (هَبِل) الفضائى[2]...

لم يكن يدرى لماذا يصرُّون على مضاعفة العمل على هذا النحو، على الرغم من أنه هناك مئات الأجرام السماوية مختلفة الأحجام، يمكن رصدها عبر (هَبِل) طوال الوقت...

أسبل جفنيه لحظات، محاولاً منحهما لحظات من الراحة، عندما سمع صوت رئيسه (جورج رويال)، يقول فى صرامة:

– هذا ليس وقت النوم أيها المصرى.

فتح عينيه فى سرعة، وأدارهما إلى حيث يقف (رويال)، بقامته الفارهة وملامحه الخشنة، واعتدل فى جلسته وهو يغمغم فى توتر:

– إننى أعمل منذ...

قاطعه (رويال) بخشونته المعتادة:

– يريدونك هناك.

اعتدل (شريف) أكثر، وانتشى عقله من فرط الدهشة، وهو يتساءل:

– يريدوننى أنا؟

(1) وكالة ناسا (Nasa): هى الإدارة الوطنية للملاحة الفضائية والفضاء، فى الولايات المتحدة الأمريكية، وهى مسئولة عن الأبحاث المدنية والعسكرية الفضائية طويلة المدى.

(2) هَبِل: تليسكوب فضائى ضخم، يدور حول الأرض، ولقد ساهم فى إمداد الفلكيين بأفضل وأوضح صور للكون، بعد معاناة طويلة مع التليسكوبات الأرضية، التى تلوثها الأتربة، وتفسد صورتها حركة الهواء، وهو لم يساهم فى وضع صور أفضل فحسب، ولكن فى تطوير علم فيزياء الفضاء أيضاً.

أشار (رويال) بسبَّابته إلى أعلى، وحمل صوته، على الرغم من خشونته، قدراً من التوتر، وهو يغمغم:

- نعم... هم... هناك... فى أعلى.

تضاعفت حيرة (شريف)، وهو ينهض متسائلاً:

متى !؟... ولماذا !؟

تزايد التوتر فى صوت (رويال)، وهو يجيب:

- يريدونك الآن.... أما لماذا !!

هزَّ كتفيه دلالة على عدم المعرفة، فازدرد (شريف) لعابه، وهو يغمغم بالعربية، التى لا يعرف (رويال) حرفاً واحداً منها:

- الآن !؟... لماذا إذن !؟

كان يعمل فى (ناسا) منذ خمس سنوات، عندما حصل على الجنسية الأمريكية، بزواجه من (درو)، التى خلبت لبه، بعد عام واحد من وصوله من (مصر)...

ومنذ عمل فى (ناسا)، تعلَّم أن دوره يقتصر على تحليل المعلومات فحسب، وأنه ينتمى إلى ما يطلق عليه اسم (الفئة الرابعة)، والتى لها صلاحيات محدودة، باعتبارها فئة فنية فحسب...

أما أصحاب (الفئة الأولى)، فلم يرهم طوال تلك السنوات الخمس قط...

كانوا أشبه بآلهة الأوليمب، فى الأساطير الإغريقية القديمة،[1] يقيمون منعزلين فى الطابق العلوى، ويديرون كل الأمور بضغطات على أزرار الكمبيوتر، دون الاحتكاك المباشر بالعاملين، أو حتى رواد الفضاء...

ولهذا كان استدعاؤهم له يرهبه...

ويخيفه...

ويقلقه...

---

(1) كان الإغريق القدامى يتصورون أن آلهة الكون تقطن أعلى جبل أوليمبوس، حيث يحكمهم (زيوس) كبير الآلهة، وإله الرعد والبرق، وزوجته (هيرا) آلهة الزواج، ونسجوا الكثير من الأساطير حول من تصوروا فى عقيدتهم الوثنية أنهم آلهة.

وبينما حمله المصعد إلى الطابق العلوى، راح سؤال بعينه يلح على كيانه كله، على نحو متصل عنيد...

ترى ماذا يريدون منه ؟!...

أو ماذا يمكن أن يريدوا منه ؟!...

هل ارتكب خطأ فادحاً، بلغ حد استدعائه إلى الطابق العلوى ؟!...

أم ماذا ؟!..

ماذا ؟!..

ماذا ؟!...

كانت دقات قلبه تتصاعد، مع كل سنتيمتر يرفعه إلى أعلى، حتى توقف به ذلك المصعد الخاص، معلناً أنه قد بلغ الطابق العلوى...

أو طابق الأوليمب، كما يطلقون عليه...

بلغت دقات قلبه ذروتها، عندما انفتح باب المصعد، وبدا له أربعة رجال صارمى الملامح، يقفون فى انتظاره...

كانوا ثلاثة فى زى مدنى، والرابع يرتدى زياً رسمياً، لجنرال فى سلاح الطيران الأمريكي...

وفى صعوبة، وعبر حلقه الذى صار أشبه بصحراء قاحلة، غمغم:

- فى خدمتكم يا سادة.

أشار إليه الجنرال فى صرامة:

- تقدَّم يا (فؤاد).

انتبه فى هذه اللحظة فقط إلى أنه مازال يقف داخل المصعد، فدفع قدميه دفعاً إلى خارجه، ووقف محاولاً التظاهر بالتماسك، أو إخفاء ارتجافته على الأقل، أمام هؤلاء الذين لم يرهم أحد من قبل...

وبينما ظل المدنيون الثلاثة صامتين، قال الجنرال بنفس الصرامة:

- هل يمكنك قراءة هذه العبارة وترجمتها ؟!

قالها، وهو يناوله ورقة مربعة، عليها كلمات بالعربية...

وفى توتر، التقط (شريف) الورقة، وأدارها نحوه، وقرأ ما عليها...

كانت عبارة بسيطة، مطبوعة باللغة العربية...

"كنا هنا قبلكم"...

ترجمها للواقفين أمامه، فانعقدت حواجبهم، وتبادلوا نظرة عصبية متوترة، لم يدر لها سبباً، قبل أن يقول أحد المدنيين فى توتر:

- هل يمكنك قراءتها مرة أخرى يا مستر (فؤاد) ؟!

قرأ (شريف) العبارة مترجمة مرة ثانية فعاد الرجال الأربعة يتبادلون تلك النظرة العصبية المتوترة...

أما هو، فقد راح يطالع تلك الورقة فى دهشة، ويتحسَّسها بين سبَّابته وإبهامه فى حركة دقيقة، انتبه لها ذلك الجنرال، فسأله فى اهتمام شديد:

- ماذا يثير اهتمامك ؟!

غمغم (شريف) فى تردُّد:

- الورقة... والحبر.

سأله مدنى آخر فى لهفة:

- ماذا بهما ؟!

حاول (شريف) فى صعوبة أن يزدرد لعابه الجاف، وهو يغمغم:

- معذرة يا سادة، ولكن والدى كان يمتلك مطبعة بسيطة فى (القاهرة)، حيث ولدت ونشأت... ولقد قضيت معظم عمرى، قبل هجرتى إلى هنا، بين الورق وأحبار الطباعة، و...

قاطعه الجنرال فى صرامة، مكرِّر السؤال:

- ماذا بهما ؟!

حاول (شريف) مرة أخرى ازدراد لعاب لا وجود له، ثم غمغم فى صوت شبه مبحوح:

- هذا الورق سميك، بسمك مائتين وأربعين جراماً، ولكنه خفيف الوزن إلى درجة تقل عن وزن سبعين جراماً.

بدا الاهتمام الشديد على الرجال الأربعة، فى حين تساءل الجنرال:

- وماذا أيضاً ؟!

أكمل (شريف):

- خامة الورق ليست طبيعته، وهو ليس مصنوعاً من لحاء الشجر، مثل الورق العادى، وليس ورقاً صناعياً أيضاً، ويجمع الوزن مع الخامة، لا أجد تفسيراً إلا إذا...

بتر قوله دفعة واحدة، فسأله مدنى فى لهفة:

- إلا إذا ماذا ؟!

أدار بصره فى وجوه أربعتهم فى توتر، فأشار إليه الجنرال بالمواصلة، إلا أنه غمغم فى صعوبة:

- أريد جرعة ماء.

فاجأ قوله الرجال الأربعة، إلا أن أحدهم أسرع يحضر له كوباً من الماء، جرعه (شريف) دفعة واحدة فى لهفة، ثم مسح شفتيه بكفه، فابتسم الجنرال ابتسامة خفيفة، وهو يقول:

- أكمل يا فتى.

وجد (شريف) ما يزدرده من لعابه هذه المرة، قبل أن يكمل:

- هذا الورق إما أنه اختراع جديد، أو...

بدا عليه التردُّد، فهتف به أحد الرجال:

- أو ماذا ؟!... تحدَّث ولا تخف.

عبارة الرجل جعلته يندفع قائلاً:

- أو أنه من الفضاء الخارجى.

تبادل الرجال الأربعة نظرة شديدة التوتر هذه المرة، قبل أن يعقد الجنرال كفيه خلف ظهره، قائلاً:

- وماذا لو أخبرتك أنه اختراع جديد ؟!

أجابه فى سرعة:

- لن أصدّقك.

سأله فى هدوء:

- ولماذا ؟!

هزّ (شريف) رأسه فى بطء، مجيباً:

- أوّلاً هذا الحبر يضوى، على نحو لا يمكن أن يفعله حبر طباعة آخر، وله سمك قليل جداً، و...

قاطعه الجنرال فى حزم:

- ربما كان اختراعاً جديداً بدوره.

اعتدل (شريف)، وهو يقول:

- سيبقى السبب الثانى، وهو أن العبارة مكتوبة بلغة لا يمكنكم فهمها، وهذا لا يتفق مع اختراع جديد تفحصونه.

تبادلوا نظرة أخرى، كما لو أن هذا هو رد فعلهم التقليدى، كلما واجهوا أمراً ما، ثم ابتسم الجنرال ابتسامته الخفيفة، وهو يسأل شريف:

- ما وظيفتك هنا بالضبط مستر (فؤاد) ؟!

أجاب (شريف) فى سرعة:

- أنا محلّل كمبيوتر، من الفئة الرابعة.

تأمّله الجنرال لحظات، قبل أن يقول:

- تبدو لى أكثر ذكاءً من هذا.

ابتسم (شريف)، واكتفى بهز كتفيه، فتقدّم منه الجنرال، وصافحه فى احترام، وهو يقول:

- نشكرك يا مستر (فؤاد)... أظنك من الذكاء، بحيث أنه ليس من الضرورى أن أطلب منك أن تبقى كل ما شاهدته هنا سراً.

ابتسم (شريف)، قائلاً:

- وهل رأيت شيئاً هنا يا جنرال ؟!

اتسعت ابتسامة الجنرال، وشدّ على يده فى قوة واحترام أكثر...

"(شريف).... ماذا بك ؟!...." ...

ألقت عليه زوجته الرقيقة (درو) السؤال فى قلق، بعد أن لاحظت شرود فكره فى الساعات الأخيرة، وأقلقها أكثر أن بدا لها كمن يستيقظ من حلم طويل، وهو يلتفت إليها فى بطء، متسائلا:

- ماذا ؟!

نهضت إليه، وداعبت شعره فى رقة، وهى تسأله:

- ماذا يشغل بالك إلى هذا الحد ؟!... هل من جديد فى العمل ؟!

حدّق فى وجهها لحظات، وكأنه لم يفهم ما قالته، ثم لم يلبث أن ابتسم ابتسامة شاحبة، وهو يغمغم:

- لا... لا جديد... كل شئ يسير كالمعتاد.

تطلعت إليه فى حيرة وقلق أكثر، قبل أن تسأله فى صوت مرتجف:

- هل... هل من امرأة أخرى ؟!

بدت عليه الدهشة لسؤالها، ثم لم يلبث أن أطلق ضحكة صافية، واحتضنها بين ذراعيه، هامساً:

- وهل توجد امرأة غيرك فى هذا الكون ؟!

طبعت قبله على وجنته، ثم استكانت بين ذراعيه...

ولكن ذلك القلق لم يفارقها..

أبداً...

فمنذ التقت به لأوّل مرة، وهو صريح، واضح، ومباشر، وتلقائى...

ولهذا أحبته...

وعشقته...

وتزوَّجته...

ومنذ عرفته، لم تره شادراً هكذا أبداً...

ولم يخف عنها سراً...

على الإطلاق...

فماذا يحدث داخله الآن ؟!

ماذا ؟!..

ماذا ؟!..

***

"ما رأيكم أيها السادة ؟!..."

ألقى الجنرال (دوايت) السؤال، على مجموعة صغيرة تجلس أمامه، بينها اثنان فقط يرتديان الزى العسكرى، فران عليهم الصمت لحظات، قبل أن يقول أحدهم فى خشونة، بدت وكأنها جزء من شخصيته:

- الشاب من أصل عربى، وهذا لا يشعرنى بالارتياح...

رفع آخر يده، قائلاً:

- أنا أتفق معه فى هذا الأمر.

مط الجنرال (دوايت) شفتيه، وهزَّ رأسه بعدم رضى، ثم قال فى هدوء حازم قوى:

- (أمريكا) بلد يقطنه مهاجرون، من كل جنسيات العالم... والعرب جزء منهم، شئنا أم أبينا... ومنهم رجال قانون، ومفتشو شرطة لهم سجلات ممتازة، وحتى المخابرات المركزية تضم عدداً لا بأس به منهم.

غمغم ثالث:

- ولكن فى الآونة الأخيرة.

قاطعه الجنرال دوايت بإشارة صارمة من يده، وهو يكمل:

- جهاز التنصُّت، الذى قمنا بزرعه فى منزله، أثبت أنه يمتلك عزيمة قوية، حتى أنه لم يفصح عن السر لزوجته، التى تقول تحرياتنا أنه مغرم بها.

تساءل ذلك الخشن:

- أهذا يكفى ؟!

رمقه الجنرال (دوايت) بنظرة صارمة، وهو يجيب:

- تتحدَّثون كما لو أنه لدينا خياراً.

بدا التوتر على كل الوجوه، على نحو لم يغب عن عينيه الخبيرتين، مما شجعه على أن يواصل بصرامة أكثر:

- كل منكم يعلم أن هذا هو الشخص المطلوب بالضبط... ومن حسن طالعنا أن نجد أنه يعمل لدينا.

تراجع صاحب الصوت الخشن، وهو يقول فى شئ من الحدة، لم يحاول حتى السيطرة عليها:

- هذا بالضبط ما يقلقنى.

التفت إليه الجنرال (دوايت) بنظرة صارمة مستهجنة، ولكنه أكمل بنفس الخشونة:

- هذا لا يبدو لى طالعاً حسناً، أو مصادفة شبه مستحيلة.

انعقد حاجبا الجنرال (دوايت) الكثين فى شدة، فى حين أضاف رجل آخر فى توتر:

- ماذا لو أن هذا كله تم ترتيبه، بحيث نلجأ إلى ذلك الشخص بالذات ؟!... ماذا يمكن أن نفعل عندئذ ؟!

أجابه (دوايت) فى حزم:

- نلجأ إليه.

ظهر الاستنكار والاستهجان على وجوه الجميع، وسرت بينهم همهمة غير مفهومة، جعلت صوت الجنرال (دوايت) يرتفع ويزداد صرامة، وهو يكمل...

- لست أدرى ماذا أصابكم بالضبط ؟!... ما نحن بصدده أمر خارق للمألوف، ويتجاوز أقصى ما بلغته تكنولوجيتنا، حتى الشق غير المعلن منها، وهذا يعنى أننا نواجه قوة لا قبل لنا بها... ولو أن تلك القوة المجهولة... والخارقة أيضاً، تدفعنا نحو شخص بعينه، فليس أمامنا من خيار سوى أن نلجأ إليه.

بقدر ما كانت كلماته صارمة صادمة، كانت تحوى منطقاً تصعب مجادلته، لذا فقد تبادل الكل نظرات مفعمة بالتوتر، قبل أن يزفر أحدهم، مغمغماً:

- لماذا نناقش الأمر إذن ؟!

أدار صاحب الصوت الخشن بصره فى وجوه من حوله، قبل أن يبسط راحته أمام الجنرال (دوايت)، قائلاً فى خشونة أكثر:

- فليكن... الجأ إليه.

وحسم هذا النقاش...

تماماً...

***

لوَّح (شريف) بكفه لزوجته (درو)، وهى تودعه أمام باب منزلهما، هاتفه به فى حب:

- حاول ألا تتأخر.

ضحك قائلاً:

- هذا يتوقف على مزاج (رويال).

ضحكت بدورها، وتابعته ببصرها فى حب واضح، وهو يستقل سيارته، وينطلق بها مبتعداً، وملوِّحاً بيده عبر نافذتها، ثم منحته قبلة فى الهواء، قبل أن تعود إلى المنزل...

أما هو، فقد قاد سيارته، عبر الطرق التى اعتاد اجتيازها، فى طريقه اليومى إلى عمله، و...

وفجأة، انتبه إلى السيارة التى اقتربت منه فى سرعة، ثم جاورته بنفس سرعته، والراكب إلى جوار قائدها يشير إليه؛ للتوقُّف على جانب الطريق..

توتره دفعه لرفض تنفيذ الإشارة، وحاول أن يزيد من سرعة سيارته، ولكن سيارة (فان) سوداء اعترضت طريقه، بعد أن تجاوزته، ومالت أمامه مباشرة، على نحو لم يترك له خياراً...

وتوقَّف...

شعر بتوتر شديد يملأ كيانه كله، عندما غادر رجلان يرتديان حلتين سوداوين، ومنظارين شمسيين السيارة السوداء، التى توقفت إلى جواره

مباشرة، واتجها نحوه، وأحدهما يدس يده فى جيبه، وكأنه يهم بسحب سلاح ما...

وعلى الرغم من أن هذا غير مجد عملياً، حاول (شريف) التقاط هاتفه المحمول فى سرعة؛ لطلب شرطة النجدة، إلا أن أحد الرجلين مد يده عبر زجاج النافذة، واختطف الهاتف من يده بحركة سريعة، تشف عن خبرة ومهارة، وهو يقول فى صرامة:

- لا محادثات هاتفية.

- قالها، وأخرج من جيبه كيساً من القماش، المبطَّن بالرصاص العازل للموجات، ألقى فيه هاتف (شريف)، ثم أغلقه فى إحكام، فى حين فتح الآخر الباب الأيمن، على نحو جعل (شريف) يهتف فى ذعر:

- ماذا تريدون منى ؟!

جلس الأيمن على المقعد المجاور له، وهو يقول فى صرامة نمطية:

- نحن من وكالة الأمن القومى.... لا تقلق يا مستر (فؤاد)... نحتاج إليك لبعض الوقت فحسب.

امتقع وجهه وشحب صوته، وهو يسأل:

- لماذا ؟!... ماذا فعلت ؟!

أخرج الرجل من جيبه ما يشبه القلم، وهو يجيب، بنفس الصرامة النمطية:

- هل ستصدقنا لو أخبرناك أننا لا نعلم ؟!

قبل أن ينهى عبارته، رفع القلم أمام وجه (شريف)، ثم ضغط قمته، وهو يخفى أنفه وفمه بكمه..

وانطلق رذاذ ذو رائحة نفاذة فى وجه شريف، الذى أدار رأسه محاولاً تفاديه، وهو يهتف:

- ما هذا بالضبط ؟!

ولم يدر ما إذا كان الرجل قد أجابه أم لا...

هذا لأن حواسه كلها تداعت دفعة واحدة...

وأظلمت الدنيا أمام عينيه...

ثم انتهى كل شئ...

أو أنه قد بدأ...

ففجأة أيضاً، انطلق رذاذ آخر فى وجهه...

كانت له أيضاً رائحة نفاذة ...

ولكنها تختلف...

تختلف تماماً...

"تقبَّل اعتذارى، عن الأسلوب الذى أحضرناك به يا مستر (فؤاد)... " ..

سمع الصوت وكأنه يأتي من أعماق سحيقة، وبدا له، عندما حاول أن يفتح عينيه، أنهم قد وضعوا ثقلاً على جفنيهما، فغمغم فى صعوبة:

- (شريف)... اسمى (شريف).

أجابه صوت هادى قوى:

- نعرف كل شئ عنك يا مستر (فؤاد).

قاوم ليفتح عينيه فى بطء، وتطلَّع عبر جفنيه نصف المفتوحتين إلى الرجل الواقف أمامه، والذى بدا متين البنيان، رياضى القوام، على الرغم من شعره الأشيب وملامح وجهه، التى توحى باقترابه من سن الستين...

كان يرتدى زى جنرال أمريكى، ولكن ابتسامته بدت حانية ودود، وهو يضيف:

- الواقع أنها ستكون المرة الأخيرة، التى نفعل فيها هذا.

اعتدل (شريف)، وفرك عينيه، وهو يقول:

- العبارة مقلقة.

غمغم الجنرال.

- ربما هى عكس ما توحى به تماماً.

بدأ (شريف) يستعيد صفاء ذهنه، فدار ببصره فيما حوله، متسائلاً:

- أين أنا بالضبط؟!

ـجابه الجنرال، وهو يجلس أمامه:

- سنعرف كل شئ بعد قليل.

عاد (شريف) يدير رأسه فيما حوله مرة ثانية، قبل أن يقول فى حزم عصبى متوتر:

- لماذا أحضرتمونى هنا ؟!... وماذا تريدون منى بالضبط ؟!

تراجع الجنرال فى مقعده، وهو يقول:

- الواقع يا مستر (فؤاد)، أننا جميعاً فى حاجة إليك.

ارتفع حاجبا شريف فى دهشة، وهو يقول:

- فى حاجة إلىَّ أنا ؟!

أومأ الجنرال برأسه، قائلاً:

- وبشدة يا مستر (فؤاد).

تضاعفت الدهشة والحيرة فى ملامح (شريف)، وهو يقول:

- ولماذا تحتاج الولايات المتحدة إلىَّ بشدة هكذا ؟!

صمت الجنرال لحظات، وهو يتطلَّع إليه، ثم قال:

- من الواضح أنك لم تستوعب الأمر جيداً يا مستر (فؤاد)... عندما قلت: إننا نحتاج إليك بشدة، لم أكن أقصد بنحن هذه الولايات المتحدة الأمريكية.

تساءل (شريف) بكل التوتر والحذر:

- من إذن ؟!

مال الجنرال نحوه مجيباً:

- البشر يا مستر (فؤاد)... الجنس البشرى... كله.

وكاد قلب (شريف) يتوقف، ودهشته تتضاعف ألف مرة...

على الأقل.

***

الفصل الثالث

"إنجاز علمى مذهل يا بروفيسير (عمر)..."

ابتسم البروفيسير (عمر)، أستاذ الميتافيزيقا، فى الجامعة الأمريكية فى (القاهرة)، وداعب لحيته فى زهو واضح، قبل أن يشعل غليونه فى بطء، وزميله البروفيسير (ناجى) يكمل فى حماس:

- إنها أوَّل مرة يتم فيها تصوير الأشباح بهذا الوضوح.

نفث البروفيسير (عمر) دخان غليونه فى بطء، وأشار بيده، قائلاً:

- إنها أوَّل مرة تستخدم فيها أجهزة حديثة كهذه.

أومأ البروفيسير (ناجى) برأسه متفقاً، وقال:

- ولكن ما فعله ذلك الشبح فى المقدِّمة مثير للدهشة بحق.

نفث البروفيسير (عمر) دخان غليونه بشئ من التوتر هذه المرة، وهو يميل نحوه متسائلا:

- ماذا تعنى؟!

اعتدل البروفيسير (ناجى)، وعاد يشير بيده، قائلاً:

- لقد وقف يستعرض جسده أمام الكاميرا، وكأنما يسعى لإعلان عن وجوده.

تمتم البروفيسير (عمر)، وتوتره يتزايد:

- ربما هذا ما عناه.

التقط (ناجى) نفساً عميقاً، وتساءل:

- السؤال هو لماذا؟!

انعقد حاجبا البروفيسير (عمر)، وهو يقول فى عصبية:

- لم أدرس هذا بعد... ربما لو راجعت الشريط المسجَّل مرة أخرى، قد...

لم يتم عبارته، وإنما ازداد انعقاد حاجبيه، وهو يتراجع مفكراً في عمق...

لماذا حقاً فعل ذلك الشبح هذا ؟!

لماذا استعرض جسده أمام الكاميرا ؟!

هل أراد أن يثبت لمراقبيه أنه يتمتع بجسد مشابه لأجسادهم ؟!

ولكن لماذا ؟!

بم يفيد هذا ؟!..

المفترض أنه شبح...

طيف لشخص فارق عالمنا...

فلماذا سيختلف جسده ؟!...

لماذا ؟!..

البروفيسير (ناجي) على حق...

هناك لغز ما خلف هذا...

لغز يحتاج إلى إعادة تفكير...

وإعادة تفسير...

ارتفع رنين هاتفه المحمول فجأة، بينما هو مستغرق في أفكاره، فانتفض جسده في عنف، على نحو جعل البروفيسير (ناجي) يتراجع في سرعة، هاتفاً على نحو تلقائي:

- ماذا بك ؟!

أشار إليه (عمر) أن يهدأ، والتقط هاتفه المحمول، ورأى اسم رئيس الجامعة على شاشته، فضغط زر الاتصال، وهو يقول في توتر، لم يفارقه بعد:

- صباح الخير يا سيدي... هل...

قاطعه رئيس الجامعة، قبل أن يتم سؤاله:

- بروفيسير (عمر)... الكولونيل (أورويل) في طريقه لمقابلتك... أرجو أن تحسن استقباله والتعاون معه.

عاد حاجبا البروفيسير (عمر) ينعقدان، وهو يتساءل فى قلق:

- الكولونيل (أورويل) ؟!... من هو ؟!... وماذا يريد منى بالضبط ؟!

بدا توتر رئيس الجامعة واضحاً فى صوته، وهو يقول:

- إنه من أمن السفارة الأمريكية فى (القاهرة)... تعاون معه فحسب... الأمر هام للغاية.

انتقل التوتر إلى البروفيسير (عمر)، وهو يقول:

- وماذا تريد منى السفارة الأ...

قطع رئيس الجامعة الاتصال، قبل أن يتم (عمر) سؤاله، وكأنه يعلن عدم رغبته فى إجابة أية تساؤلات، فارتفع حاجبا (عمر) فى دهشة، مما جعل زميله (ناجى) يتساءل فى قلق:

- ماذا هناك ؟!

هزَّ (عمر) رأسه، مجيباً فى حيرة:

- الأمور الغامضة تتزايد، والتفسيرات المطلوبة تكثر.

غمغم ناجى، وقد أضيف القلق إلى دهشته:

- ماذا هناك بالضبط ؟!

قبل أن يجيب (عمر)، انفتح باب مكتبه دون استئذان، وظهر على عتبته رجل ممشوق القوام، متين البنيان، أشقر الشعر، جامد الملامح، تساءل فى صوت صارم خشن:

- البروفيسير (عمر).

رفع (عمر) يده، مجيباً:

- إنه أنا... أأنت الكولونيل..

قاطعه الكولونيل (أورويل) بإشارة صارمة من يده، وهو يدير بصره إلى حيث يقف البروفيسير (ناجى)، قائلاً فى صرامة:

- هل يمكننى أن أتحدَّث معك... وحدنا.

ضغط حروف كلمته الإنجليزية الأخيرة، وهو ينظر إلى البروفيسير (ناجى)

بكل صرامة، فتنحنح هذا الأخير فى توتر عصبى، وقال:

- أظننى سأنصرف، فلدى عمل هام أقوم به.

لم ينطق (عمر) بحرف واحد، حتى غادر (ناجى) الحجرة، فأغلق الكولونيل (أورويل) الباب خلفه، وعاد ينظر إلى (عمر)، وعقد كفيه أمامه، وهو يقول فى حزم:

- الواقع أن أشباحك تهمنا يا بروفيسير.

غمغم (عمر)، فى دهشة مستنكرة:

- أشباحى؟!... ومن أدراكم بأمر أشباحى ؟!

تجاهل الكولونيل السؤالين، وهو يتابع فى صرامة:

- سنحتاج إلى القرص الصلب، الذى سجِّلت عليه كل شئ.

هتف البروفيسير (عمر)، وهو يتراجع نحو جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به، وكأنه يحاول حمايته من ذلك القادم المخيف:

- القرص الصلب ؟!... من أنتم بالضبط ؟!

شدَّ الكولونيل قامته، وتضاعفت صرامته، وهو يقول:

- إننا جهة مستعدة لتمويل أبحاثك، وتطويرها إلى حد لم تكن تحلم به.

غمغم (عمر) بأنفاس مبهورة:

- حقاً ؟!

أشار الكولونيل بسبَّابته، مضيفاً فى حزم مخيف:

- ولكن بشرط واحد.

سأله (عمر)، فى تردُّد وتوتر:

- وما هو ؟!

أجابه الكولونيل بكل صرامة:

- أن نحصل على النسخة الوحيدة لكل ما تم تسجيله فى هذا الشأن.

حدَّق فيه (عمر) لحظات فى دهشة، لم تلبث أن تحوَّلت إلى استنكار

غاضب، وهو يقول فى حدة:

- وماذا لو رفضت ؟!

بقى الكولونيل هادئاً صارماً، وهو يجيب:

- رجل علم مثلك، من الخطأ أن يرفض فرصة مثالية كهذه... إنك بإمكاناتك الحالية، بما يمكن أن توفره لك الجامعة الأمريكية من تمويل، فى بحث عن الأشباح، لن تصل إلى أبعد مما وصلت إليه... أما معنا، فالأمر سيختلف . . . كثيراً.

تساءل (عمر)، فى توتر شديد:

- كيف هذا ؟!

أشار الكولونيل إلى ما حوله، مجيباً فى حزم:

- معنا ستملك معملاً بخمسة أضعاف حجم هذا على الأقل، وعلى ميزانية مفتوحة، يمكنك أن تنفق معها الملايين؛ للحصول على كل ما يخطر ببالك من الإمكانات الحديثة... ونحن سنوفر لك أجهزة تفوق المتاح فى الأسواق بجيلين على الأقل.

بدا الانبهار على وجه (عمر)، فابتسم الكولونيل ابتسامة ظافرة باهتة، قبل أن يكمل فى صوت يقطر إغراء:

- تخيل ما يمكن أن تصل إليه أبحاثك، مع إمكانيات مفتوحة كهذه.

تألقت عينا البروفيسير (عمر)، والتهب فضوله العلمى، وهو يتساءل فى حذر:

- وهل سيحدث كل هذا فى (مصر) أم (أمريكا) ؟!

صمت الكولونيل لحظات، قبل أن يجيب:

- وهل للعلم وطن يا بروفيسير ؟!

بدا هذا جواباً كافياً للبروفيسير (عمر)، فانطلق خياله يتصوَّر ما يمكن حقاً أن يصل إليه، لو حصل على تلك الإمكانيات الهائلة، و...

"ولكن لماذا ؟!..."

انطلق السؤال من بين شفتيه كالقنبلة، حاملاً كل توتره وانفعاله، قبل أن يتابع فى عصبية:

- لماذا تهتم الولايات المتحدة الأمريكية بالأشباح، إلى هذا الحد ؟!

صمت الكولونيل لحظات، وكأنما يدرس رده فى ذهنه جيداً، قبل أن يقول فى هدوء، لا يتفق مع توتر (عمر):

- لا أستطيع أن أخبرك بالتفاصيل الآن؛ لأنها تندرج تحت بند الأمن القومى، ولكن هناك أمر واحد، يمكننى أن أخبرك به، لتحسن اتخاذ قرارك.

سأله عمر فى توتر حذر:

- وما هو؟!

مال الكولونيل نحوه، وهمس فى أذنه، بصوت كالفحيح:

- ما رصدته لم يكن أشباحاً.

واعتدل، دون أن يضيف كلمة واحدة.

ولكن العبارة، بالنسبة للبروفيسير (عمر) كانت صادمة... للغاية...

***

انطلقت تنهيدة ارتياح، من بين شفتى الجنرال (دوايت)، وهو ينهى محادثة هاتفية عبر المحيط، قائلاً:

- عظيم ... كاد الفريق أن يكتمل.

هتف أحد الرجال، المجتمعون حول مائدة بيضاوية، فى حجرة بلا نوافذ:

- هل وافق؟!

ابتسم الجنرال (دوايت)، وهو يعيد هاتفه إلى جيبه، مجيباً:

- كان من العسير على عالم مثله، أن يرفض فرصة كهذه.

غمغم صاحب الصوت الخشن فى عصبية:

- كلاهما مصرى ... ألا يقلقك هذا ؟!

بدا الجنرال هادئاً، وهو يتطلّع إليه قليلاً، ثم يقول:

- دعنى أنا أسألك: ما مشكلتك مع المصريين ؟!

أجابه فى عصبية:

- أنهم عرب.

مال على مائدة الإجتماعات، يسأله مرة أخرى:

- وماذا فى هذا ؟!

قال فى حدة أكثر خشونة:

- هل انمحت ذكرى الحادى عشر من سبتمبر من ذاكرتك أم ماذا ؟![1]

تراجع الجنرال برأيه قليلاً، وحملت نظرته استهجاناً واضحاً، وهو يقول:

- ومن منا يمكن أن ينسى هذا الحدث المؤلم . . . ولكن هذا مضى منذ زمن طويل، وعلاقاتنا بالعرب جيدة هذه الأيام.

بدا صاحب الصوت الخشن عصبياً متشنجاً، وهو يقول:

- العرب سيظلون عرباً... وارهابيين.

حملت شفتا الجنرال لمحة ساخرة، وهو يغمغم:

- ولكن الإسرائيليين تموج قلوبهم بالرحمة، وتاريخهم فى الشرق الأوسط يثبت هذا.

هتف صاحب الصوت الخشن فى حدة، وهو يهب من مقعده:

- هل تسخر منى يا جنرال ؟!

هزَّ الجنرال رأسه نفياً فى بطء، وهو يقول فى حزم:

- لا منك ولا من بنى قومك يا رجل... اهدأ . . . إما أن تدرك خطورة ما

---

(1) الحادى عشر من سبتمبر: يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، شهدت الولايات المتحدة الأمريكية مجموعة من الهجمات الإرهابية، حيث تم تحويل مسار أربع طائرات ركاب مدنية، وتوجيهها لتصطدم اثنتان منها ببرجي التجارة العالميين فى (مانهاتن)، ومبنى (البنتاجون)، فى حين سقطت الرابعة قبل بلوغ هدفها، الذى لم يعلن عنه أبداً.

نحن بصدده اليوم، أو تنسحب من هذه اللجنة، التى لا تحتمل أية انفعالات أو ردود فعل شخصية.

احتقن وجه الرجل فى شدة، حتى تصوَّر البعض أنه سينفجر بالدماء، قبل أن يعاود الجلوس على مقعده فى بطء، أمام نظرات الجنرال القاسية، والذى تابعه ببصره حتى استقر على مقعده، ثم نهض إلى الشاشة الكبيرة على الجدار، وقال، وكأنه يتابع حديثاً سابقاً:

- الحدث الخارق، الذى حدث على سطح القمر، لم يتكرَّر مرة أخرى، فى أى مكان آخر، ولكن ظاهرة أشباح الدائرة الحمراء تكررَّت فى (مصر)، و(فرنسا)، و(الهند)... ولو صنعنا خطاً، يربط أماكن تكرارها، فلن يشير إلى أية سمة هندسية ذات معنى.

قال أحد الرجال فى توتر:

- هذا الحديث لا معنى له إذن.

رمقه الجنرال بنظرة صارمة؟، وتابع دون توقُّف:

- ولكن الخبراء رسموا خريطة كهرومغناطيسية، عبر مراجعة كل صور الأقمار الصناعية الخاصة بالطقس، تبيَّن منها حدوث خلل كهرومغناطيسى مؤقت، فى المواضع التى ظهرت فيها أشباح الدائرة الحمراء، كان أقواها مع حدث فى طريق (ليل) (كاليه) فى (فرنسا).

تساءل أحد الرجال فى قلق:

- وماذا عن القمر؟!

اعتدل الجنرال، مجيباً:

- لم تكن لدينا خريطة كهرومغناطيسية لسطحه للأسف.

تساءل صاحب الصوت الخشن فى صرامة:

- لم تعرفوا لماذا كان الظهور الوحيد على سطحه إذن!!

زفر الجنرال زفرة متوترة، قبل أن يجيب:

- مازال خبراؤنا يبحثون هذا، ولكنكم أيها السادة نسيتم أهم أمر يخص ذلك الظهور.

تطلعت إليه العيون فى تساؤل قلق، فشد قامته وهو يجيب:

- تعلمون جميعاً أن كل كائنات الأرض، تحوى ضفيرتها الجينية ثلاثة وعشرين زوجاً من الكروموسومات، التى تحوى الصفات الوراثية لكل كائن... من الإنسان، وحتى وحيدات الخلية... كلها تحوى ستة وأربعين صبغية، على شكل ضفيرة جينية، يرتبط كل زوجين فيها بقسيم مركزى، ويطلق على كل زوج اسم الكروموسوم/ و...[1]

قاطعه صاحب الصوت الخشن فى حدة:

- أهناك ضرورة لهذه المحاضرة العلمية.

رمقه الجنرال مرة أخرى بنظرة قاسية، قبل أن يتابع دون تعليق، فى تجاهل متعمد واضح للمقاطعة:

- وكل ضفيرة جينية تحوى اثنين وعشرين كروموسوماً للصفات الوراثية، وزوج واحد للصفات الجنسية.

زمجر صاحب الصوت الخشن، وكأنه يكرر سؤاله، فبدا الضيق على الجنرال، وهو يعتدل مضيفاً فى صرامة:

- عينة البشرة، التى أضافها رجل القمر الغامض، إلى المظروف الذى حوى الرسالة العجيبة، كانت تحوى سبعة وعشرين زوجاً من الصبغيات، وليس ستة وعشرين.

ألقاها كقنبلة، اتسعت لها عيون الكل فى ذهول مذعور، وأسقط عليهم صمت رهيب، استغرق ما يقرب من دقيقة كاملة، قبل أن يقطعه أحدهم، وهو يغمغم فى صوت مضطرب مرتجف:

- أيعنى هذا أنه ليس بشرياً ؟!

مط الجنرال شفتيه، وهو يقول:

- المجيب أن الأزواج الثلاثة والعشرون من الكروموسومات، كانت بشرية مائة فى المائة، ولدينا مطابقة مذهلة لها.

---

(1) حقيقة علمية.

سأله أحد الرجال فى صوت مبهور مبحوح:

- وماذا عن الزوج الإضافى.

صمت الجنرال لحظات، وهو يدير عينيه فى الحاضرين، وكأنما يرصد مقدماً تأثير كلماته التالية عليهم:

- علماؤنا فحصوا زوج الكروموسومات الأخير بدقة، وراجعوا دراساتهم خمس مرات، قبل أن يقولوا بكل تأكيد: إن ذلك الزوج لا مثيل له إلا فى كائن واحد فقط، من بين كل الكائنات المعروفة، على وجه الأرض.

قالها، وضغط زر جهاز تحكم عن بعد فى يده، فاختفت الصورة من الشاشة الكبيرة، وظهرت بدلاً من الخريطة صورة كائن أرضى ميكروسكوبى... كائن اتسعت عيون الجميع عن آخرها لدى رؤيته...

هذا لأن المفاجأة كانت صادمة مذهلة...



إلى حد مخيف...

للغاية...

***

"أمر عجيب بالفعل..."

قالها الطبيب الفرنسى فى حيرة حقيقية، وهو يفحص نتائج فحوص السائق الفرنسى (سيمون)، الشاهد الوحيد لظهور أشباح الدائرة الحمراء، قبل أن يتابع، وهو يهز رأسه فى توتر:

- جسده مازال محاطاً بطاقة كهرومغناطيسية ملحوظة، على الرغم من مرور هذا الوقت !!... من الواضح أنه قد تعرَّض لمجال كهرومغناطيسى فائق القوة.

غمغم رجل المخابرات الفرنسية (آلان رينيه)، الواقف إلى جواره:

- ربما حدث هذا بالفعل.

هزَّ الطبيب رأسه فى قوة، قائلاً:

- ليس ربما، ولكن من المؤكَّد.

عاد (آلان) يغمغم:

- فليكن.

ثم سحب كل نتائج الفحوص، ودسُّها في حقيبة سوداء، ذات أرقام سرية، وأغلقها في إحكام، والطبيب يقول معترضاً:

- بهذا لن يمكننا إعادة دراسة الفحوص.

أجابه (آلان) في صرامة، وهو يحمل الحقيبة منصرفاً:

- لا تشغل بالك بهذا...

تابعه الطبيب ببصره في عصبية، ثم قال في حدة:

- وأين ذهب السائق (سيمون) ؟!... كان هنا ثم...

قاطعه (آلان) في صرامة، دون أن يلتفت إليه:

- لم يكن هنا أبداً.

اتسعت عينا الطبيب في دهشة، وهو يقول مستنكراً:

- لمن تلك الفحوص، التي أجريناها هنا إذن ؟!

استدار إليه (آلان)، وحملت شفتاه ابتسامة ساخرة، وهو يقول:

- أية فحوص ؟!

شعر الطبيب بما يشبه الصدمة، وهو يحدّق ذاهلاً في وجه رجل المخابرات الفرنسي...

إنها مؤامرة مدبَّرة بعناية...

اختطاف السائق...

الاستيلاء على الفحوص والنتائج...

هكذا لن يتبقى دليل واحد، على أن المستشفى قد استقبل ذلك السائق..

أو دليل على ما أدلى به...

ولكن مهلاً... سجلات المستشفى سجَّلت وصول السائق..

وآلات التصوير ستثبت هذا...

كانت الفكرة تدور فى رأسه، عندما وصل رجل المخابرات الفرنسى إلى باب الحجرة، وأمسك مقبضه، وصمت لحظة، ثم التفت إلى الطبيب، وقال وكأنه قد قرأ أفكاره:

- إنك حتى لن تجد ذكراً لوصوله، فى السجلات الرسمية.... ناهيك عن العطل المحدود، الذى أصاب كاميرات المراقبة، وتسبَّب فى محو مساحة من الشرائط الرقمية المسجَّلة.

شهق الطبيب، وجسده كله يرتجف بكل التوتر، فأطلق رجل المخابرات الفرنسى ضحكة قصيرة، وغادر الحجرة، وهو يغلق الباب خلفه فى إحكام، تاركاً الطبيب خلفه مصدوماً...

بشدة...

***

سحب الضباب كانت تنتشر فى المكان فى بطء...

والطريق طويل...

طويل بلا نهاية...

وهو يجلس هناك، فى كابينة القيادة، فى سيارته الضخمة...

يجلس صامتاً...

مبهوتاً...

مبهوراً...

محدقاً فى تلك الدائرة الحمراء...

الظلال تخرج منها...

وتخرج...

وهو يتابعها بلا خوف...

وبلا قدرة على الحركة...

"أنت تشعر بوجودنا... أليس كذلك ؟!..."

أتى الصوت من المقعد المجاور له، فاستدار إلى مصدره في بطء، وكأنما هو مشهد من فيلم سينمائي بطئ...

ظل أحمر كبير، كان يجلس إلى جواره مباشرة...

ظل بشرى...

أحمر...

داكن...

بلا ملامح...

حاول أن يجيبه...

أن ينطق...

ولكنه لم يستطع...

طاقة ما كبلت شفتيه، وأطبقتهما، فعجز عن النطق تماماً...

"أعلم أنك تسمعني جيداً..."..

انتبه في هذه اللحظة فقط، إلا أن ذلك الظل لا ينطق...

ولكنه يسمعه..

وبكل الوضوح...

والعجيب أنه لم يكن يشعر بالخوف على الإطلاق...

شئ ما، جعله يشعر بالاطمئنان، وهو يتطلع إلى ذلك الظل الأحمر الداكن...

وفي هدوء، رفع ذلك الظل يده، ووضعها على كتفه...

وانتفض جسده كله...

وبمنتهى العنف ..

"هل استعدت وعيك ؟!..."..

انتزعه ذلك الصوت مما يشبه السبات، فانتفض جسده مرة أخرى، وفتح عينيه، وتطلع إلى رجل المخابرات الفرنسي الواقف أمامه، والذي تابع في هدوء،

لم يخل من نبرة صارمة:

- مؤشراتك الحيوية أشارت إلى أنك قد استعدت وعيك.

ظل (سيمون) صامتاً لحظات، قبل أن يقول:

- أين أنا ؟!... ومن أنتم ؟!

كانت الدهشة من نصيب (آلان رينيه)؛ بسبب ذلك الهدوء الشديد، الذى ألقى به السائق سؤاله..

رجل فقد وعيه، ثم أفاق ليجد نفسه فى حجرة مغلقة، يجلس على مقعد يتصل بعشرات الأجهزة والشاشات الرقمية، كان من الطبيعى أن يشعر بشئ من التوتر...

ولكن (سيمون) بدا هادئاً...

وربما أكثر مما ينبغى...

وفى حزم، سأله (آلان):

- هل تذكر ما حدث، فى طريق (ليل) (كاليه) ؟!

أومأ (سيمون) برأسه إيجاباً، قبل أن يجيب بنفس الهدوء العجيب:

- وبكل التفاصيل.

حدَّق (آلان) فى وجهه، وسؤال مضطرب يتراقص على شفتيه، ولكن السائق الفرنسى، تابع فى حزم:

- إننى أحمل رسالة لكم.

هتف (آلان) بكل الدهشة:

- لنا ؟!... من من ؟!

أجابه فى سرعة:

- من الظلال.... الظلال الحمراء.

كانت صدمة عنيفة لرجل المخابرات الفرنسى، ولكل من يراقبون ما يحدث ويتابعونه، عبر شاشات المراقبة...

ولكن (آلان)، كرجل مخابرات محترف، استعاد ماسكه وصلابته فى سرعة، وهو يسأله:

- وماذا تقول الرسالة ؟!

مال سيمون نحوه، وهو يقول فى حزم واثق:

- كنا هنا قبلكم.

وهنا تراجع (آلان)، وكل من يتابعون اللقاء فى عنف...

فالصدمة كانت تفوق الحدود...

كل الحدود...

وبلا حدود.

***

الفصل الرابع

"الرسالة نفسها أيها السادة... "...

قالها الجنرال (دوايت)، بكل الحزم والصرامة، وهو يواجه تلك المجموعة، حول مائدة الاجتماعات، والتى راحت تتبادل نظرات متوترة، قبل أن يقول أحدها:

- ألا يحتمل أن تكون مجرَّد مصادفة ؟!

مطَّ الجنرال شفتيه، وأشار بيده، قائلاً:

- عملنا لا يؤمن بالمصادفات أيها السادة، وأن نواجه ظاهرتين خارقتين، تنقل إلينا كل منهما الرسالة نفسها، فى توقيت متقارب إلى هذا الحد، سيكون من المضحك أن نفترض كونها مصادفة.

قال آخر:

- أيعنى هذا أن أشباح الدائرة الحمراء على الأرض، هم صورة لذلك الكائن شبه البشرى، الذى التقى رائد الفضاء على القمر؟!

قال الجنرال:

- أكاد أجزم بهذا.

صمت لحظة، وكأنه سيكتفى بهذا القول، ثم لم يلبث أن استدرك فى حزم:

- وهذا رأى فريق الخبراء أيضاً.

لوَّح صاحب الصوت الخشن بذراعه، قائلاً فى توتر:

- ولماذا لم يتجسَّد آخر على الأرض إذن ؟!... لماذا دوماً ظلال داكنة حمراء ؟!

أشار الجنرال بسبَّابته، مجيباً:

- يقترح الخبراء أن هذا يتعلَّق بالاختلافات الفيزيائية، بين الأرض والقمر... مثل الجاذبية والغلاف الجوى وغيرها.

زمجر صاحب الصوت الخشن كعادته، قبل أن يتول فى حدة غير مبررَّة:

- كيف إذن تمكَّن ذلك الكائن شبه البشرى، من السير على سطح القمر، دون حلة واقية ؟!

مطَّ الجنرال شفتيه، وكأنما يعانى من بطء فهمهم، وظل صامتاً لحظات، ناظراً إلى قدميه، قبل أن يعتدل، مجيباً فى حزم:

- من الواضح أن السر يكمن فى زوج الكروموسومات الرابع والعشرين، فى ضفيرته الجينية.

أشار صاحب الصوت الخشن بيده، قائلاً فى عصبية، لم يكن لها أيضاً ما يبررُّها:

- ذلك الذى يعود إلى الكائن الميكروسكوبى البشع.

التقط الجنرال نفساً عميقاً للسيطرة على أعصابه، ثم أجاب بأكبر قدر نجح فى اصطناعه من الهدوء:

- بالضبط.

عاد الرجال يتبادلون نظرة متوترة، قبل أن يتساءل أحدهم:

- وماذا يمكن أن نفعل الآن ؟!

صمت الجنرال لحظات، وكأنما يستجمع أفكاره، ثم لم يلبث أن أشار بيده، قائلاً:

- إننا نسعى لجمع فريق عمل من المتخصصين، القادرين على التعامل مع الأمر.

غمغم الصوت الخشن فى صرامة:

- فريق من الأمريكيين ؟!

رمقه الجنرال بنظرة استهجانية، ثم تابع متجاهلاً سؤاله:

- ولاستكمال ذلك الفريق، قام الخبراء بعملية بحث عالمية النطاق، توصلوا بعدها إلى أنه ينقص ذلك الفريق باحث متخصِّص فى التاريخ القديم.

غمغم صاحب الصوت الخشن مرة أخرى:

- لدينا الكثير منهم.

أشار الجنرال بسبَّابته، مجيباً فى صرامة:

- ولكننا نبحث عن باحث فى التاريخ القديم جداً... تاريخ ما قبل التاريخ المعروف.

تساءل أحد الحاضرين:

- تاريخ حقبة الديناصورات ؟!

التقط الجنرال نفساً عميقاً، قبل أن يجيب فى حزم:

- بل تاريخ ما قبل هذا أيضاً.

هزَّ صاحب الصوت الخشن رأسه فى قوة، ولوَّح بذراعه فى حدة، وهو يهتف مستنكراً:

- قبل هذا لم تكن الأرض قد بردت بعد، وتاريخها لم يحو سوى الزلازل والحمم والبراكين.

ضغط الجنرال زر جهاز التحكّم عن بعد، وهو يقول فى حزم:

- رؤيتك تختلف عن رؤية هذا الرجل.

حملت الشاشة صورة رجل فى أواخر العقد الخامس من العمر، وإلى جواره بياناته الشخصية، فهتف صاحب الصوت الخشن، مستنكراً فى غضب:

- لا... ليس مصرياً آخر.

قال الجنرال فى صرامة:

- إنه الرجل الوحيد الصالح للمهمة.

وصمت لحظة، قبل أن يضيف:

- الأهم أن الأبحاث كلها لن تجرى هنا، فى الولايات المتحدة الأمريكية.

تساءل أحد الرجال:

- أين إذن ؟!

أجابه فى حزم:

- هناك.... فى (مصر).

وازداد غضب صاحب الصوت الخشن...

ألف مرة...

***

ارتفعت درجات الحرارة، داخل كهوف (تاسيلى)، على الحدود الليبية الجزائرية، وراح الدكتور (خالد) يحرِّك كفه أمام وجهه، محاولاً أن يدفع به بعض الهواء إلى بشرته الملتهبة، فى حين انهمك مساعده الشاب (أنور)، مع طالبته (إلهام)، فى تصوير تلك الرسوم العجيبة، على جدران الكهف، الذى يعود عمره، وفقاً لتقدير الخبراء، إلى آلاف أو مئات الآلاف من سنوات مضت...

كانت الجدران، على الرغم من هذا، تحوى رسوماً لنساء يرتدين ثياباً حديثة نسبياً، ويحملن مظلات واقية، ولرجال فيما يشبه زى الغوص، يحملون أنابيب الأكسجين على ظهورهم، وآخرين يطيرون فى الهواء، وحولهم أجسام طائرة، أقرب إلى السفن الفضائية، منها إلى الطائرات[1]..

وفى دهشة ملحوظة، ودون أن تتوقف عن عملها، غمغمت (إلهام):

- أأنتم واثقون من عمر الرسوم على هذه الجدران؟!... تبدو لى أحدث بكثير من العمر الافتراضى لها.

أجابها الدكتور (خالد)، وهو يجفِّف عرقه الغزير:

- التحليل الطيفى والكربونى أثبتا أن عمر هذه الرسوم مئات الألوف أو ملايين السنين.

ارتفع حاجباها، وتضاعفت دهشتها، وهى تغمغم:

- عجباً!!... تبدو لى وكأنها رسوم من القرن التاسع عشر.

أضاف إليها (أنور)، وهو يشير إلى رسم لرجل طائر:

(1) حقيقة..

- إنهم حتى لم يطيروا، فى القرن التاسع عشر.

قالت فى عناد:

- ولم يفعلوا أيضاً، منذ ملايين السنين.

قال الدكتور (خالد) فى سرعة:

- ومن أدراك ؟!

التفتت إليه، قائلة:

- معذرة يا دكتور (خالد)، ولكن التاريخ البشرى مدوَّن ومعروف.

تطلع إليها لحظة فى صمت، ثم قال فى بطء:

- حقاً ؟!

لم تفهم للوهلة الأولى ما يعنيه، ولكنه ارتكن على صخرة بارزة، وهو يتابع:

- هل سألت نفسك، يوماً كيف كان العالم، قبل فيضان (نوح) عليه السلام ؟!

هزَّت رأسها نفياً، فأكمل بلغة عالم شغوف:

- (نوح) عليه السلام، حمل فى فلكه من كل زوجين اثنين... أليس كذلك؟!

غمغمت فى فضول:

- بلى.. كان يحرص على ألا تنقرض الفصائل بالفيضان، عندما يغمر الأرض.

أشار بيده، مكملاً:

- عظيم... ولأنه لم يكن يعلم متى سيجد يابسة، يرسوا عليها فلكه، فقد حمل من الطعام والشراب ما يكفى لزمن غير محدود، كل من على فلكه.

أجابت فى حذر:

- هذا طبيعى.

مال نحوها، متسائلاً فى اهتمام:

- لو أجريت حسبة رياضية، فكم يمكن أن يبلغ حجم فلك، يحوى من كل زوجين اثنين، مع كل ما يكفيهم من طعام وشراب، لمدة لم يعلمها إلا الخالق عزَّ وجل ؟!

أجاب (أنور)، دون أن يلتفت:

- حجم هائل ولا شك.

تألّقت عينا الدكتور (خالد)، وهو يقول:

- وعلى الرغم من هذا، لم يبد أحداً دهشته للأمر.

قالت (إلهام) معترضة:

- بل أبدوا دهشتهم، وهذا مذكور.

أشار بسبَّابته، مجيباً:

- أبدو دهشتهم من أنه عليه السلام يبنى فلكاً، فى موقع لا بحر فيه، وليس قريباً حتى من البحر.

ثم عاد يميل نحوها بشدة، مستطرداً:

- ولم يبد أحدهم دهشته، من بناء فلك بهذه الضخامة، وبكل هذه الاستعدادات.

قالها، وتراجع، وعاد يجفّف عرقه، ويلوِّح بيده أمام وجهه، فسألته وقد اشتعل فضولها العلمى بشدة:

- ماذا تعنى ؟!

عاد يعتدل، مجيباً فى حماس:

- التفسير المنطقى الوحيد، هو أن بناء فلك كهذا لم يكن أمراً خارقاً للمألوف، فى زمن ما قبل الفيضان... زمن (نوح) عليه السلام.

تراجعت فى دهشة، وكأنما صدمها التفسير، فى حين توَقّف (أنور) عن عمله، والتفت إليه، هاتفاً فى انبهار:

- نظرية مذهلة يا دكتور !!

ابتسم الدكتور (خالد) فى زهو عالم، وتزايد حماسه وهو يقول:

- خذ قصة (النمرود) أيضاً، والذى سعى لبناء برج شاهق، يصل به إلى السماء ... هل تتصوَّر أن بناء هائل كهذا، كان من الممكن أن يتقبله قوم، لم تبلغ تقنياتهم حد بنائه.

توقف (أنور) عن عمله تماماً، وجلس على حجر أمام الدكتور (خالد)، قائلاً بأنفاس مبهورة، وكأنه يحاول استيعاب كل هذا:

- تساؤلاتك هذه يمكن أن تقلب التاريخ رأساً على عقب يا دكتور (خالد).

اندفعت (إلهام) تضيف فى انفعال:

- لو صحَّت.

ابتسم الدكتور (خالد)، وهو ينظر إليها، قائلاً:

- هل لديك تفسير لبطارية (بغداد) إذن، أو خريطة القبطان (بيرى)، والتى يؤكد العلماء أنها لا يمكن أن تكون بهذه الدقة، ما لم يتم تصويرها من الفضاء !؟... ثم ماذا عن ذلك العصفور الحجرى فى المتحف المصرى، والذى أثبتت الدراسات أنه نموذج لطائرة بكل نسبها العلمية، وليس لمجرَّد عصفور؟!(1)

تردَّدت (إلهام) لحظات، قبل أن تقول بكل الحذر:

- وهذا يعنى...

لم تكمل سؤالها أو عبارتها، ولكن الدكتور (خالد) قال بكل الحماس:

- أنه كانت هناك حضارة سابقة لحضارتنا... حضارة اندثرت لسبب ما... حضارة أشبه بما رواه (أفلاطون) عن (أطلانتس) ... أو بـ(إرم) ذات العماد، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ... حضارة تركت لنا عشرات الألغاز خلفها، لكى نسعى ونبحث، أو لنعرف كيف سادت ثم بادت... لنتعلم ألا نكرِّر أسباب اندثارها.

شعرت (إلهام) بتوتر شديد يسرى فى جسدها، وهى تحاول هضم واستيعاب

---

(1) كلها ظواهر غامضة عجيبة، تنتشر فى بقاع مختلفة من الأرض، ولم يجد العلم لها تفسيراً مقبولاً حتى الآن.

الفكرة، إلا أنها عجزت عن هذا تماماً...

لقد قضت سنوات، تدرس تاريخ العالم...

منذ الانفجار الكبير، الذى صنع الكون من ذرة واحدة...

درست كيف سادت الديناصورات الأرض...

وكيف انقرضت..

كيف صعدت الحضارات...

وكيف اندثرت...

ما تعلمته، من كل سنوات دراستها، هو أن عمر الإنسان على الأرض بضع عشرات من الآلاف من السنين...

أو ربما مليون عام على الأكثر...

فكيف يمكن أن تكون نظرية الدكتور (خالد) صحيحة !؟...

كيف !؟...

كيف يمكن أن تكون هناك حضارة، سادت الأرض منذ ملايين السنين !؟...

هذا يهدم تاريخ البشرية كله، ويقلبه رأساً على عقب...

ومن المستحيل أن تؤمن بهذا...

من المستحيل أن تصدَّق أنه حقيقة...

إنها ستبقى مجرَّد نظرية...

نظرية لم تثبت بعد...

وقد لا تثبت أبداً...

مجرَّد نظرية...

هذا أقصى ما يمكن أن تؤمن به...

إذا ما آمنت يوماً به...

"مستحيل !!..." ..

هتف (أنور) بالكلمة، لينتزعها وينتزع الدكتور (خالد) من أفكارهما، ويجذب انتباههما إليه، وإلى ما يفعله...

كان يمسك عدسة مكبِّرة كبيرة، يحدِّق عبرها فى نقوش دقيقة، أسفل ما بدا أشبه بسيارة قديمة، وسط رسوم كهوف (تاسيلى)...

وفى اهتمام وفضول، اندفع كلاهما نحوه، والدكتور (خالد) يهتف فى لهفة:

- ماذا وجدت ؟!

كان صوت (أنور) يرتجف، مشفاً عن انفعاله، وهو يشير إلى النقوش الدقيقة، مجيباً:

- فى البداية تصوَّرتها مجرَّد نقوش.

غمغمت (إلهام) فى حذر متوتر:

- مازالت تبدو لى كذلك !!

هزَّ رأسه نفياً فى قوة، وهو يقول:

- هذا لأنك لا تنظرين إليها من الزاوية الصحيحة.

أدارت رأسها، محاولة استنتاج زاوية الرؤية المشار إليها، والدكتور (خالد) يتساءل فى لهفة:

- وما الزاوية الصحيحة يا (أنور) ؟!

حرَّك (أنور) كفيه فى انفعال، وهو يجيب:

- هذه النقوش مقلوبة ومعكوسة.

فرد شاشة اللاب توب الخاص به أمامهما، وظهرت عليها صورة النقوش، وهو يواصل فى انفعال:

- ولكن دعونا نقلبها رأساً على عقب، ونجعلها أشبه بصورتها فى مرآة... ماذا ترون الآن ؟!

اتسعت عيونهما فى انبهار ذاهل، وهتفت (إلهام):

- مستحيل !!

أما الدكتور (خالد)، فقد ارتجف صوته بكل انفعاله، وهو يقول:

- إنها كتابات أشبه بالعربية.

هتفت (إلهام) ذاهلة:

- اللغة العربية لم تكن معروفة، عندما وضعت هذه الرسوم.

هزَّ (أنور) رأسه فى قوة، وقال فى انفعال:

- وهذا ما يجعل الأمر مذهلاً بحق.

مال الدكتور (خالد) برأسه، محاولاً قراءة النص على الشاشة، وهو يتساءل:

- وماذا تقول ؟!

أتاهم صوت من خلفهم يجيب:

- كنا هنا قبلكم... أليس كذلك ؟!

التفت الكل إلى مصدر الصوت، ووقع بصرهم على رجل أخفى الضوء القادم من خلفه ملامحه...

ولكنه أبرز قامته الفارهة، ومنكبيه العريضين...

وفى ذهول عصبى، هتف (أنور):

- كيف عرفت يا هذا ؟!

أجابه الرجل فى حزم:

- المشكلة أننى لم أعرف... ولكننى توقَّعت.

هتف به الدكتور (خالد) فى عصبية:

- من أنت يا هذا ؟!... وماذا تريد منا ؟!

شدَّ الرجل قامته، وهو يجيب فى حزم وصرامة:

- أنا رئيسكم.

اتسعت عيونهم فى دهشة مستنكرة، وهتفت (إلهام) فى حدة مستهجنة:

- رئيسنا ؟!

أشار بيده، قائلاً:

- باعتبار ما سيكون.

هتف الدكتور (خالد) فى غضب:

- ومن أدراك أننا سنقبل أمراً كهذا ؟!

أجاب بكل صرامة:

- ستقبلون.

وتضاعفت صرامته، وهو يضيف:

- فليس لديكم خياراً.

وصدمهم هذا القول الأخير...

بشدة..

***

"هذا الورق عجيب بالفعل !!..."...

نطق العالم الأمريكي العبارة فى دهشة كبيرة، قبل أن يلتفت إلى زميله، فى المعمل التابع للمخابرات المركزية الأمريكية، مستطرداً:

- خامته غير معروفة فى عالمنا هذا، فهى مزيج من البلاستيك، مع مادة حيوية، وقليل من التيتانيوم والألياف الصناعية.

غمغم زميله فى حيرة:

- ولماذا يصنع أحدهم ورقاً بكل هذا التعقيد... إنه فى النهاية مجرد ورق !!...

تحسس العالم الأول الورقة مرة أخرى، قبل أن يقول:

- لا ريب أن له صفات خاصة، دفعت إلى إنتاجه على هذا النحو... أو ربما أنه ليس فعلياً مجرد ورق.

سأله الثانى:

- ماذا يمكن أن يكون إذن ؟!

أشار الأوّل بسبَّابته، مجيباً:

- ربما لو فحصناه بأنواع الأشعة المختلفة...

لم يكمل عبارته، ولكن الثانى استوعبها، فغمغم:

- نعم.... ربما...

راحا يعدان أجهزة الأشعة المختلفة، والثانى يكمل فى اهتمام:

- ربما يساعدنا هذا فى معرفة طبيعة ذلك الحبر أيضاً.

مطَّ الأوّل شفتيه، وهو يعد جهازه، قائلاً:

- التحليل الطيفى له أشار إلى كومة من التركيبات المعقدَّة أيضاً.

هزَّ الثانى رأسه، وهو يقول مستهجناً:

- ترى من أين أتى هذا بالضبط ؟!... ولماذا يعمدون إلى كل هذا التعقيد، فى كل ما يبتكرونه.

توَّقف الأوّل عن عمله؛ ليقول فى قلق:

- أو ربما هذا ما أرادونا أن نتوَّصل إليه.

التفت إليه الثانى، متسائلاً فى توتر:

- ولماذا ؟!

أشار الأوّل بيده، قائلاً:

- ربما لأنها رسالة، يوصلون لنا بها مدى تقدَّمهم، وقدرتهم على صنع تركيبات شديدة التعقيد.

امتقع وجه الثانى، وهو يغمغم:

- أيعنى هذا أننا نواجه حضارة تفوقنا.

تطلع إليه الأوّل لحظة فى دهشة، قبل أن يقول، فى شئ من الحدة:

- كنت أتصوَّر أن هذا يبدو واضحاً منذ البداية.

ازداد امتقاع وجه الثانى، فلوَّح العالم الأوّل بيده، قائلاً:

- دعنا ندرس تأثير الإشعاعات المختلفة أولاً.

غمغم الثانى:

- بالتأكيد.

بدأ كلاهما عملية تعريض الورقة لأطوال مختلفة من إشعاعات متغيرة..

استغرق الأمر أكثر من ساعتين..

وبدون أية نتائج واضحة..

وبكل الإرهاق، غمغم الثانى فى إحباط:

- من الواضح أن هذا ليس مجدياً.

أشار الأول بيده، قائلاً:

- لم ننته بعد... مازال أمامنا ثلاثة اختبارات.

زفر الثانى، وهو يقول:

- دعنا ننته منهم إذن.

نهض بعد جهاز إشعاع جديد، وضغط زره، وهو يوجِّه نحو الورقة، دون أمل فى الحصول على نتائج جديدة، و...

"ما هذا ؟!..." ..

هتف العالم الأوَّل بالسؤال، وهو يميل بجسده كله نحو الورقة، التى حدَّق فيها الثانى مأخوذاً...

مع الأشعة الأخيرة، ظهر ذلك الشئ، بين نسيج الورقة العجيبة...

الشئ الذى يمكن أن يقلب الأمور كلها رأساً على عقب...

فى عنف.

***

الفصل الخامس

بدا التوتر ملحوظاً، فى ملامح وصوت الدكتور (أكرم على)، أستاذ الفيزياء التجريبية، وهو يستقبل المقدَّم (محمد مشهور)، والذى قدَّم نفسه باعتباره مندوبا من رياسة الجمهورية...

وبهذا التوتر الملحوظ، سأله الدكتور (أكرم):

- وماذا تريد منى رياسة الجمهورية ؟!... هل تم ترشيحى لمنصب ما ؟!

ابتسم المقدَّم (مشهور)، وهو يجيب:

- أظنها مسألة وقت فحسب يا دكتور (أكرم)؛ فأبحاثك محل اهتمام الكثير من الجهات بالفعل.

بدت نظرة تساؤل واضحة فى عينى الدكتور (أكرم)، فتنحنح المقدَّم (مشهور)، وشدَّ قامته وهو يتابع:

- الواقع أنه تم ترشيحك لمهمة علمية خاصة.

ارتفع حاجبا الدكتور (أكرم) بكل الدهشة، وهو يردِّد:

- مهمة علمية ؟!

قال المقدَّم (مشهور) فى سرعة، وكأنما لا يريد أن يمنحه فرصة إلقاء سؤال آخر:

- أنت واحد من أنبه العلماء، الذين يعكفون على وضع خريطة القوى الكهرومغناطيسية فى (مصر).

غمغم الدكتور (أكرم) فى حذر:

- هذا صحيح... إلى حد ما.

تابع المقدَّم (مشهور) فى حزم:

- ولهذا تم اختيارك.

صمت الدكتور (اكرم) لحظات، محاولاً هضم الفكرة، التى لم تخطر يوماً

باله أبداً...

ترى أية مهمة تلك ؟!...

ولماذا هو بالذات ؟!...

لماذا ؟!..

"هذا يتم بالتعاون مع... مع الأمن القومى الأمريكي"...

قطع المقدّم (مشهور) تساؤلاته بقوله هذا، فانتفض جسد الدكتور (أكرم)، وتراجع خطوتين فى حركة حادة، قبل أن يهتف، وقد جف حلقه:

- الأمن القومى الأمريكي ؟!...

هتف بها فى ذعر واضح، فانعقد حاجبا المقدّم (مشهور)، وهو يقول فى صرامة:

- التعاون بين أجهزة المخابرات يحدث طوال الوقت...

غمغم الدكتور (أكرم) فى اضطراب:

- أيعنى هذا أنك...

استوقفه المقدّم (مشهور) بإشارة صارمة من كفه، وهو يقول بنفس الصرامة:

- ولتعلم أنك تفعل هذا من أجل (مصر)، وليس من أجل أية جهة أخرى.

صمت الدكتور (أكرم) بضع لحظات، امتقع خلالها وجهه، قبل أن يغمغم فى شحوب:

- حديثك يوحى بأنه ليس تعاوناً علمياً صرفاً.

التقط المقدّم (مشهور) نفساً عميقاً، قبل أن يجيب:

- إنه ليس كذلك بالفعل.

تساءل الدكتور (أكرم) فى توتر:

- وماذا عن دورى ؟!

أجابه المقدّم (مشهور) فى سرعة:

- سيقتصر تعاونكم على الجانب العلمى.

تراجع الدكتور (أكرم) خطوة أخرى، متسائلاً:

- تعاوننا ؟!

أومأ المقدَّم (مشهور) برأسه إيجاباً، وقال فى حزم:

- أنت ضمن فريق علمى يا دكتور.

بدا صوت أنفاس الدكتور (أكرم) واضحاً، وهو يتطلع إلى المقدَّم (مشهور) طويلاً، حتى أن هذا الأخير قال فى صرامة قاسية إلى حد ما:

- جوابك يا دكتور (أكرم)...

ولكن الدكتور (أكرم) استمر فى صمته طويلاً:

- طويلاً جداً...

***

"تطوُّر جديد ومدهش أيها السادة.... "...

قالها الجنرال (دوايت) فى حزم، لم يخل من رنة توتر، وهو يشير إلى الشاشة الكبيرة، التى حملت صورة واضحة لتلك الورقة، تحت تأثير الأشعة الأخيرة...

وبكل الاهتمام والتوتر والقلق، تطلَّع الجالسون إلى الصورة، فى حين تابع هو:

- ما تصوَّرناه مجرَّد ورقة، فوجئ المتخصصون بأنه أشبه بدائرة رقمية بالغة الدقة، مثل قرص صلب لجهاز كمبيوتر حديث.

غمغم صاحب الصوت الخشن، وهو يراقب الصورة فى عصبية:

- هذا لا يشبه الدوائر الرقمية، التى نعرفها فى عالمنا !!

أشار الجنرال بيده، قائلاً:

- وهذا أيضاً محل دراسة الخبراء، الذين يرون فيه تأكيداً على أن هذا الشئ لا ينتمى إلى عالمنا على الإطلاق.

التقط نفساً عميقاً، وكأنما يحاول تهدئة أعصابه، قبل أن يتابع:

- فتطوُّر الحضارات يسير من نقطة إلى أخرى، فى منظومة متتابعة، ذات قواعد أساسية، تنتهى بها دوماً إلى نسق متشابه، أو متوافق مع ما سبقها من تطورات، تسير على النسق نفسه ... ولكن لو بدأ التطوُّر وفق نسق مختلف من البداية، فسيتبع قواعد ذلك النسق، حتى ولو سار وفق نفس النظريات العلمية، وسينتهى به الأمر إلى حالة، تتفق مع نسقه، ولكنها تختلف كل الاختلاف مع أى نسق آخر.

تساءل أحدهم بكل القلق:

- وما خلاصة كل هذا ؟!

أشار الجنرال دوايت إلى الشاشة، مجيباً:

- ما نراه أمامنا هو تطوُّر خاص، اتبع منذ بدايته نسقاً يختلف عن النسق، الذى اتبعناه فى عالمنا، ولهذا فهو يختلف عن كل ما عرفناه ونعرفه هنا.

تساءل صاحب الصوت الخشن، والذى بدا أنه أعلاهم شأناً:

- هل تريد أن تقول: إنه ينتمى إلى عالم آخر ؟!

استدار إليه الجنرال فى بطء، وعقد كفيه أمام جسده، مجيباً فى حزم:

- نعم... هذه الورقة تنتمى إلى حضارة، لا تمت لما نعرفه بأية صلة.

تبادلوا كلهم نظرات عصبية متوترة، ولكنه صفَّق بيده؛ ليستعيد انتباههم جميعاً، قبل أن يضيف فى حزم:

- خبراؤنا يسابقون الزمن الآن، فى محاولة لإيجاد وسيلة فعَّالة؛ لقراءة تلك الرسالة الخفية، التى تحويها تلك الورقة.

تساءل صاحب الصوت الخشن فى عصبية:

- كنت أتصوَّر أننا قد قرأنا الرسالة بالفعل.

أشار الجنرال بيده، قائلاً:

- ما قرأناه هو الرسالة المكتوبة بالعربية، على سطح تلك الورقة الرقمية، إذا جاز أن نصفها بذلك... ولكن من الواضح أن الدائرة داخلها تحوى رسالة أخرى، أشمل وأعم.

غمغم أحد الحاضرين:

- إننا لم نعلم حتى لماذا اختاروا اللغة العربية؛ لكتابة رسالتهم الخارجية تلك !!

بدت علامات التفكير على الجنرال، وهو يقول:

- لا ريب أن اختيار اللغة هو رسالة غامضة أخرى، ربما يتوصل الخبراء إلى فهمها فيما بعد.

هتف صاحب الصوت الخشن فى عصبية:

- حديثك يمكن اختصاره فى أننا مازلنا أشبه بالعميان؛ لا ندرى عما يحدث شيئًا.

مطَّ الجنرال شفتيه، وهو يجيب:

- من المؤسف والمؤلم أن هذا صحيح إلى حد ما، خاصة وأنه هناك أمر آخر، وراء أخطر من كل تلك الرسائل... أخطر بكثير.

وامتقعت الوجوه كلها، مع اتساع العيون، فى انتظار معرفة ذلك الأمر، الذى وصفه بأنه أخطر بكثير...

فماذا يمكن أن يكون أخطر مما عرفوه بالفعل ؟!..

ماذا ؟!...

ماذا ؟!...

***

اتسعت عينا الدكتور (أكرم) عن آخرهما، وهو يحدِّق فى تلك المنطقة، فى قلب صحراء (مصر) الغربية، والتى دلفت إليها السيارة الكبيرة، التى حملته من منزله، منذ خمس ساعات...

كانت وكأنها قطعة من زمن آخر، تم نقلها إلى قلب صحراء، لا تنتمى إليها بأى حال من الأحوال...

مبنى هائل، محاط بأسوار عالية، وحراسة أمنية بالغة، من رجال القوات المسلحة، بمشاتهم ومدرعاتهم، وحتى دبَّاباتهم...

والمبنى نفسه بالغ الفخامة والأناقة، ويحتل مساحة كبيرة من الصحراء، فى شكل دائرة مكتملة من المبانى، تتوسطها مساحة مغطاة بقبة زجاجية عاكسة سميكة، لا يمكن لمن خارجها أن يلمح حتى ما يحدث داخلها، مهما بذل من جهد...

وما أن هبط من السيارة، على الأرض الرخامية، المحيطة بالمبنى الدائرى، حتى شعر ببرودتها تحت قدميه، كما لو أنها لا تتأثر مطلقاً بحرارة جو أغسطس من حولها، فغمغم فى توتر، لم يستطع السيطرة عليه:

– هذا ليس رخاماً طبيعياً... أليس كذلك ؟!

لم يجبه المقدَّم (مشهور)، وإنما أشار بيده إلى الداخل، يدعوه لعبور الباب الزجاجى السميك، فعاد يغمغم:

– لم أتخيَّل أو أحلم قط، بأنه لدينا شئ مثل هذا فى (مصر).

قال المقدَّم (مشهور) فى هدوء:

– مع عبورك هذا الباب، سترى الكثير مما لم تتخيَّله من قبل قط.

مطَّ الدكتور (أكرم) شفتيه، دون أن يجيب، وسار صامتاً إلى جوار المقدَّم (مشهور)، الذى قاده عبر ممرات مكيفة الهواء، شديدة الأناقة، حتى بلغا قاعة صغيرة، جلس فيها عدد من الرجال، الذين التفتوا إليهما فور دخولهما، فتولَّى (مشهور) مهمة التعارف، قائلاً:

– مرحباً أيها السادة... أقدم لكم آخر أفراد فريقكم... الدكتور (أكرم على)، أستاذ الفيزياء التجريبية، ورئيس فريق الخريطة الكهرومغناطيسية فى (مصر)... هؤلاء هم أفراد فريقك يا دكتور (أكرم)... دكتور (خالد)، أستاذ التاريخ، والباحث فى أصول الحضارات، وتلميذته النابهة (إلهام)، ومساعده الأوَّل (أنور)، والبروفيسير (عمر)، أستاذ الميتافيزيقا فى الجامعة الأمريكية، والمهندس (شريف فؤاد)، خبير تحليل المعلومات الرقمية فى وكالة (ناسا) لأبحاث الفضاء.

بدا صوت الدكتور (أكرم) مبتهجاً، وهو يغمغم:

– كلهم مصريون... عظيم.

ابتسم (مشهور) ابتسامة باهتة، وهو يتابع:

- الكولونيل (أورويل)، من السفارة الأمريكية.

أومأ الدكتور (أكرم) برأسه إيماءة تشف عن عدم الارتياح، قبل أن يتساءل في حذر:

- وماذا عن العلماء الأمريكيين ؟!

قالها بالعربية، وعلى الرغم من هذا، فقد أجابه الكولونيل (أورويل) في حزم:

- الدكتور (أشلى)، خبيرة الفلك وفيزياء الكون، في طريقها إلى هنا، وستصل بعد ساعتين.

تساءل الدكتور (أكرم) في أعماقه، عن صلة خريطة (مصر) الكهرومغناطيسية بفيزياء الكون...

ولكنه لم يطرح سؤاله هذا...

أبداً...

أما (شريف)، فقد بدا شديد التوتر، وهو يقول:

- كلكم إما علماء في مجالاتكم، أو رجال أمن... فماذا عني أنا ؟!... أنا مجرد محلل معلومات، يمكن الاستعاضة عنه بقامات لها خبرات أكثر، وكفاءات أكبر.

تطلع إليه المقدّم (مشهور) لحظات في صمت، ثم تبادل نظرة صامتة، حملت الكثير من المعاني، مع الكولونيل (أورويل)، قبل أن يقول في حزم:

- وفقاً لما لدينا من معلومات، وعلى الرغم من غرابتها وصعوبة استيعابها، فأنت مخطئ تماماً يا سيِّد (شريف)...

غمغم (شريف) في توتر، وفي فضول شاركه فيه الجميع:

- من أية ناحية ؟!

تبادل (مشهور) نظرة أخرى مع (أورويل)، قبل أن يقول هذا الأخير:

- الواقع أنك الشخص الوحيد هنا، الذي يستحيل الاستغناء عنه يا مستر

(فؤاد)... هذا لأنك لست مجرد مشارك فى هذا المشروع... بل أنت م المشروع.

واتسعت عيون (شريف) عن آخرهما...

وعيون الجميع أيضاً...

بلا استثناء...

***

حاولت الدكتورة (أشلى) التشاغل بقراءة كتاب علمى حديث، وهى تجلس داخل الطائرة، المتجهة من (نيويورك) إلى (القاهرة)، إلى جوار الجنرال (دوايت)، الذى استبدل زيه العسكرى بحلة مدنية أنيقة، وأسبل جفنيه، متظاهراً الاسترخاء فى مقعده، فى حين كان عقله يسترجع آخر ساعات، قضاها مع لجنة المتابعة فى (ناسا)...

كان قد ألقى قنبلته، الخاصة بوجود ما هو أخطر، فشحبت وجوه الجميع، وأطل توتر مذعور من عيونهم، قبل أن يسأل أحدهم فى خفوت، تقاطر بالخوف والقلق:

– وماذا يمكن أن يكون أخطر من هذا ؟!

أشار بسبابته، مجيباً:

– ذلك الرجل الغامض، تلاشى على القمر.

لم يفهم أحدهم ما يعنيه، فحدقوا فى قلق أكثر، دفعه للاستدراك:

– لدينا حول القمر مجسات، تلتقط الحركة على سطحه، وتلتقط صوراً بالأشعة دون الحمراء طوال الوقت... تلك المجسات، عندما راجعنا ما سجلته، حددت موقع ذلك الغامض، الذى واجه (سى– ١٧) على القمر، لمسافة لا تزيد عن الثلاثة أمتار.

سأله صاحب الصوت الخشن فى توتر:

– ثم ماذا ؟!

لوح بكفيه فى الهواء، مجيباً فى انفعال:

- كما أخبرتكم ... تلاشى... تبخّر... اختفى، دون أن يترك خلفه أدنى أثر.

تبادلوا نظرة شديدة التوتر، قبل أن يقول صاحب الصوت الخشن فى تردّد:

- ربما اختفى داخل كهف أو...

قاطعه الجنرال فى حزم:

- كلا.

عادوا يتبادلون تلك النظرة المتوترة، و...

"أأنت واثق من أنك أخبرتنى كل شئ يا جنرال ؟!..."..

قطعت الدكتورة (أشلى) ذكرياته بسؤالها هذا، فاعتدل فى حركة سريعة، وقال فى صرامة وصوت خافت:

- حذار يا دكتورة... إياك أن تناديني بالجنرال مرة أخرى.

بدت عصبية معقودة الحاجبين، بسبب الطريقة التى خاطبها بها، فتنحنح، وحاول التخفيف من حدته، وهو يقول:

- نحن فى مهمة تتعلق بالبشرية كلها يا دكتورة، وهذا يستلزم منا كل الحذر والحيطة.

خفضت صوتها، وهى تقول فى صرامة غاضبة:

- لم تجب سؤالى بعد.

تطلّع إليها لحظات بنظرة مستنكرة، ثم عاد يتراجع فى مقعده، وهو يجيب فى توتر:

- لا... لم أخبرك بكل شئ يا دكتورة.

بدا من حركة أصابعها أنها قد توترت فى شدة، فلمس كفها فى رفق، وهو يقول:

- اسمعينى جيداً... فى مثل هذه المهام، يستحيل أن يحصل اللاعبون على الحقائق كلها.

قالت فى حدة، على الرغم من خفوت صوتها:

- إذن فنحن بالنسبة لك ...

قاطعها فى صرامة خافتة:

- مجرَّد قطع شطرنج... نعم يا دكتورة، حتى وإن كانت الحقيقة مؤلمة، فهى فى النهاية الحقيقة... وعالمة مثلك ينبغى أن تقدر الحقيقة، أيا كانت قسوتها.

توترت ملامحها، دون أن تجيب، فتابع وصرامته تتصاعد:

- كل شئ فى هذا العالم يدور بالقاعدة نفسها... حتى العلم يا دكتورة (أشلى)... الذين يصنعون أعظم تكنولوجيا فى العالم، مجرَّد قطع شطرنج، مهما كانت إبداعيتهم وعبقريتهم... قطع تؤدى دورها على رقعة واسعة كبيرة، تديرها عقول جبارة، تتولى توزيع المهام، وترتيب القطع، وتحديد الأهداف؛ لتحقيق أكبر مكاسب ممكنة لها.

غمغمت فى عصبية:

- هذا لا يمكن أن ينطبق على العلم.

ابتسم ابتسامة شبه ساخرة، استفزَّتها أكثر، وهو يقول:

- هل تتصوَّرين هذا ؟!... أنت تكشفين مجرة جديدة، أو تثبتين وجود كوكب، يدور حول نجم ما، على بعد ملايين السنين الضوئية، ولكن هل تتصوَّرين أنه هناك من يضع مشروعات عملاقة، لقرون قادم من الزمان، اعتماداً على ما تحققينه ؟!

غمغمت مصدومة:

- وماذا يمكن أن...

قاطعها فى صرامة:

- أرأيت ؟!... ماذا يمكن أن... سؤال تلقينه فى دهشة؛ لأنك لا تتصوَّرين أنه هناك من يفعل هذا بالفعل.

امتقع وجهها، كمن تلقى صدمة كبيرة، وغمغمت بصوت مختنق:

- رباه !... هذا بشع.

قال صارماً:

- بل هذا ما يجعلك قادرة على مواصلة أبحاثك، والزهو بكل ما تتوصلين إليه من نتائج... أنه هناك من يعلم كيف يمكنه أن يستفيد من هذا.

بدا صوتها شاحباً كوجهها، محبطاً كنظراتها، وهي تتمتم:

- وهل تعرف من يدير اللعبة ؟!

أطلق ضحكة قصيرة عصبية، قبل أن يميل نحوها، هامساً:

- يا عزيزتي، أنا نفسي مجرَّد قطعة شطرنج، على لوحة العالم الكبيرة.

مرة أخرى صدمها الجواب، فاتسعت عيناها، وهي تقول بأنفاس مبهورة:

- حتى أنت ؟!

تراجع على مقعده، وأسبل جفنيه في استرخاء، وهو يجيب في هدوء حازم:

- حتى أنا..

وعلى الرغم من ذهولها وفضولها، لم يضف الجنرال حرفاً واحداً... على الإطلاق...

"أنت هو المشروع..." ...

راحت العبارة تتردَّد في عقل (شريف)، وهو يرقد على فراشه الصغير، في الحجرة الأنيقة الخاصة به، داخل المبنى الدائري، حتى خيَّل إليه أن مخه سوف يذوب داخل جمجمته، من شدة التفكير...

لقد قالها الكولونيل (أورويل)، دون أن يفسِّرها...

بل لقد بدا وكأنه قد شعر بالندم؛ لأنه نطقها...

حتى عندما ألقى عليه الكل أسئلتهم الملتهفة؛ من أجل جواب أو تفسير، رفض إضافة حرف واحد، واكتفى بالانسحاب من القاعة الصغيرة...

أما المقدَّم (مشهور)، فأصر على أنه لا يعلم ما يعنيه هذا...

ومع توتره الشديد، كان من الطبيعى أن يحاول (شريف) الانسحاب...

بل وترك المكان كله...

و(مصر) كلها...

فقد أرعبته العبارة...

وبشدة...

لا يستطيع أن يتصوَّر نفسه مجرَّد فأر تجارب...

إنه لم يأت لهذا السبب...

ولم يخبره أحدهم بهذا...

ولو فعلوا لما جاء...

ولما انضم إلى الفريق...

أى قول هذا !؟...

بل أى غباء !؟...

إنه ليس جزءاً من الفريق، بأى حال من الأحوال...

إنه العينة، التى سيجرى عليها الفريق تجاربه...

وهو يرفض هذا...

يرفضه فى شدة...

ولكن المقدَّم (مشهور) صدمه: بأن انسحابه الآن مستحيل !...

وعندما صارا وحدهما، أخبره أن مصير البشرية يتوقَّف عليه، وطلب منه أن يحصل على مهلة للتفكير...

ولكنه لم يشرح له لماذا يتوقَّف مصير البشرية عليه !!...

فقط أخبره...

ثم تركه وحده...

شعر بتثاقل شديد فى جفنيه، وبدوار يكتنف رأسه...

رباه !!... هل دسَّ له أحدهم مخدراً، فى طعامه أو شرابه !؟...

هل !؟...

تزايد تثاقل جفنيه، وتضاعف دوار رأسه، وشعر بعرق بارد يتصبَّب على جبينه، و...

وفجأة، بدا له وكأن ضوء الحجرة قد تغيَّر...

انقلب من الأبيض إلى الوردى...

ثم إلى الأحمر...

وأطرافه لم تعد قادرة على الحركة...

ومن بين جفنيه نصف المغلقتين، شاهد ما يشبه دائرة حمراء، تتكوَّن فى منتصف الحجرة، أمام بصره...

دائرة حمراء، احتلَّت مركز الحجرة، قبل أن يخرج من وسطها ظل بشرى أحمر داكن...

ظل وقف بينه وبين الدائرة...

وبدت الحجرة وكأنها تدور أمام عينيه...

أما ذلك الظل الداكن، فقد راحت ملامحه تظهر تدريجياً، لتتخذ ملامح بشرية فعلية...

وعلى الرغم مما أصابه، انتفض جسد (شريف) فى قوة...

فملامح ذلك الظل البشرى كانت بالنسبة إليه صدمة...

صدمة بالغة القوة..

إلى أقصى حد.

***

الفصل السادس

عجزت الدكتورة (أشلى) تماماً عن السيطرة على توترها الشديد، وهى تجلس وسط أفراد الفريق، داخل ذلك المبنى الدائرى، والجميع يستمعون إلى (شريف) فى ذهول بالغ التوتر، وهو يروى تجربته للجنرال (دوايت)، الذى لم يخل بدوره من التوتر، بعد أن استقبلته تلك الصدمة الجديدة، فور وصوله مع خبيرة فيزياء الكون إلى (القاهرة)...

أما (شريف) نفسه، فقد بدا فى حالة يرثى لها، وجسده كله يرتجف فى انفعال، مع روايته لما حدث...

وبكل توترها، هتفت (إلهام):

- لا أستطيع تصديق هذا !!

أشار إليها الدكتور (خالد) بالصمت، فى حين همس (أنور) فى أذنها:

- تماسكى.

انفرجت شفتاها، وكأنها ستعلق بعبارة أو كلمة، إلا أنها لم تلبث أن اكتفت بهز كتفيها، وعادت تستمع إلى (شريف)، الذى لوَّح بذراعيه، وهو يقول فى شبه انهيار:

- تجربة رهيبة... أكثر تجربة رهيبة مررت بها فى حياتى.

غمغم الدكتور (أكرم):

- ألا يحتمل أنها مجرد هلاوس بصرية؛ بسبب حالة الإجهاد العقلى التى وصفتها.

حمل صوت (شريف) عصبية، وهو يقول:

- لم يكن إجهاداً عقلياً... لقد دسُّوا شيئاً، فى طعامنا أو شرابنا.

انعقد حاجبا الكولونيل (أورويل) فى استنكار، وغمغم المقدَّم (مشهور) فى صرامة:

- كيف يمكنك أن تفكِّر فى هذا ؟!

ولكن البروفيسير (عمر) بدا أكثرهم توتراً، وهو يقول:

- ليست هلاوس ... لقد وصف ما رأيته بأم عينى من قبل.

التفت إليه العيون المتسائلة، ولكن الجنرال (دوايت) عاد يجذبها إليه، وهو يقول:

- وما وصفه (سيمون) ؟!

اعتدل المقدَّم (مشهور)، وهو يسأله فى قلق:

- من (سيمون) هذا ؟!

أجابه الجنرال، وهو يعود ببصره إلى (شريف):

- سائق فرنسى، مرَّ بالتجربة ذاتها، فى الطريق بين (ليل) و(كاليه).... ظلال داكنة بلا ملامح، تخرج عبر دائرة حمراء، و...

قاطعه (شريف) بكل توتره:

- ماذا تعنى بأنها بلا ملامح ؟!

اعتدل البروفيسير (عمر)، وهو يقول فى اهتمام:

- هكذا سجلنا صورتها، و...

قاطعه (شريف) فى عصبية:

- ولكن ما رأيته كانت له ملامح واضحة.

اهتزَّ كيان الكل مع قوله هذا، وهتف الجنرال (دوايت) يسأله فى لهفة:

- كانت له ملامح ؟!

أجابه بكل عصبيته وتوتره:

- بكل تأكيد.

هتف البروفيسير (عمر):

- هذا تطوُّر مدهش.

غمغم الكولونيل (أورويل):

- بالتأكيد.

مال الجنرال (دوايت) نحو (شريف)، وسأله بكل الاهتمام:

- لو أحضرت لك رساماً محترفاً، هل يمكنك أن تصف له ملامح ذلك الشئ.

أجابه (شريف)، وتوتره وعصبيته يتزايدان:

- لست بحاجة إلى أى رسام... إننى أستطيع وصفه فى دقة، تفوق كل تصوراتكم.

كاد البروفيسير (عمر) يثب من مقعده، وهو يهتف به:

- ولماذا كل هذه الثقة !؟

التفت إليه (شريف)، وهو يقول فى ذروة عصبيته:

- لأن من رأيت ملامحه كان معروفاً لى جداً، وأراه كل يوم فى الصباح.

هتف الجنرال (دوايت):

- أين تراه؟ !

أجابه فى اندفاع:

- فى المرآة... فمن رأيته كان أنا.... نسخة منى أنا.

وتفجَّر قوله كقنبلة رهيبة...

للغاية...

***

"إنهم يخفون عنا الكثير..."...

قالها المقدَّم (مشهور)، وهو يتحدَّث مع رئيسه، عبر خط تليفونى محمول مؤمَّن، فصمت رئيسه لحظة، قبل أن يقول:

- الأمريكيون دوماً يفعلون هذا... يطلبون تعاوننا فقط، لكى يفيدوا منا... غرورهم وغطرستهم توهمهم بأنهم الأذكى والأبرع، والأقدر على إدارة شئون العالم.

سأله (مشهور):

- لماذا نتعاون معهم إذن ؟!

أجابه فى سرعة:

- لأننا بهذا نحصل على جزء مما يعرفونه.

ابتسم (مشهور) ابتسامة خفيفة، وهو يقول:

- ونستكمل المعرفة بوسائلنا الخاصة.

أجابه رئيسه فى حزم:

- بالضبط.

اعتدل (مشهور) وهو يقول:

- كونى رجل الأمن المصرى الوحيد، الذى يتعامل معه الفريق، سيساعدنى على مدّ أحبال التواصل والود، بينى وبين المصريين منهم، وأنا واثق من وطنيتهم، ومن أنهم لن يتوانوا عن مدنا بكل ما يصلهم من معلومات.

قال رئيسه فى اهتمام:

- المهم ألا يشعر الأمريكيون بهذا.

اتسعت ابتسامة (مشهور) قليلاً، وهو يقول فى حزم:

- سيادة اللواء... نحن محترفون.

أجابه فى حزم:

- ما من شك فى هذا . . . ولكن حذار؛ فهم أيضاً محترفون.

"ما تقوله خطير جداً يا جنرال... "...

فى نفس اللحظة، التى أنهى فيها (مشهور) اتصاله برئيسه، كان صاحب الصوت الخشن ينطق هذه العبارة، عبر اجتماع فيديو، يجريه الجنرال (دوايت) مع مسئولى (ناسا)، فأجاب هذا الأخير، وهو يتراجع فى مقعده، أمام شاشة الكمبيوتر الكبيرة، التى انقسمت إلى سبع شاشات صغيرة:

- ولكنه يتفق مع المعطيات الأوّلية لدينا، ويؤكّد أن ضم (شريف فؤاد) إلى الفريق كان حتمياً.

سأله آخر فى اهتمام:

- متى تنوى مصارحتهم يا جنرال ؟!

أجابه الجنرال على الفور، وكأنه كان يتوقّع السؤال:

- سأصارحهم بما يحتاجون إلى معرفته فحسب.

تساءل ثالث، فى حذر قلق:

- ألن يحول هذا بينهم وبين الحقيقة ؟!

صمت الجنرال لحظات، وكأنما يقيّم الأمر فى ذهنه، قبل أن يقول:

- سأحرص على ألا يحدث هذا.

وعلى الرغم من أنه يرى كل منهم منفرداً، على شاشة فرعية مستقلة، لاحظ أنهم تبادلوا نظرة قلقة، تشف عن عدم الارتياح، قبل أن يتساءل صاحب الصوت الخشن:

- وماذا عن المصريين ؟!

انعقد حاجبا (دوايت)، وهو يجيب فى خشونة مماثلة:

- لقد ناقشنا هذا الأمر من قبل.

أجابه فى شئ من الحدة:

- لست أقصد فريقك، بل أقصد الآخرين.

غمغم الجنرال فى حذر صارم:

- الآخرون ؟!

زمجر صاحب الصوت الخشن كعادته، قبل أن يجيب:

- السلطات المصرية... هل تضمن تعاونهم المخلص ؟!

عاد الجنرال إلى صمته بضع لحظات، قبل أن يقول فى بطء، وكأنما يحرص على أن تصل كلماته إليهم فى وضوح:

- إننا نعمل داخل أكبر مركز علمى سرى لديهم... يتبع قواتهم المسلحة مباشرة... وهناك ضابط مخابرات مصرى، يشرف على العمل، وكل شئ يبدو مثالياً فى الظاهر.

غمغم صاحب الصوت الخشن فى توتر:

- فى الظاهر فحسب؟!

أجابه الجنرال فى حزم:

- فى عالم المعلومات، لا يمنحك أحدهم تعاونه الكامل، دون أن يسعى للحصول على كل ما لديك، بكل وسيلة ممكنة.

قال أحدهم فى توتر:

- هذا يصنع بيئة عمل غير مريحة.

أجابه بنفس الحزم:

- بعد سنوات من العمل والخبرة، نجيد التعامل فى هذه البيئة، و...

قاطعه رنين هاتفه المحمول، فالتقطه من جيبه فى سرعة، جعلت صاحب الصوت الخشن يزمجر على الشاشة، هاتفاً:

- المفترض فى اجتماعنا ألا...

قاطعه الجنرال فى حدة صامتة:

- اصمت.

وعلى الرغم من صدمة صاحب الصوت الخشن، إلا أنه والآخرين، لاحظوا ذلك المزيج من الاهتمام والتوتر، على وجه الجنرال (دوايت)...

وخفقت قلوبهم فى عنف...

فقد كان من الواضح أنه يتلقى معلومة جديدة خطيرة...

خطيرة جداً..

***

راجع الدكتور (أكرم) نتائج فحوصه خمس مرات، قبل أن يتراجع فى مقعده، ويلتفت إلى الدكتور (خالد)، قائلاً:

- لم يكن هذياناً.

انعقد حاجبا الدكتور (خالد)، فى حين غمغمت (إلهام):

- حقاً ؟!

أومأ الدكتور (أكرم) برأسه إيجاباً، وأشار بيده، وهو يقول فى توتر:

- حدثت فجوة كهرومغناطيسية بالفعل، داخل حجرة المهندس (شريف)، فى نفس التوقيت، الذى شاهد فيه ما وصفه.

غمغمت (إلهام):

- ولكنه رأى نفسه يخرج من تلك البقعة الحمراء، وهذا يبدو لى أشبه بالهذيان منه بالحقيقة.

اكتفى الدكتور (أكرم) بقلب كفيه، دلالة على الحيرة، فى حين تمتم الدكتور (خالد)، وكأنه يحادث نفسه:

- هناك تفسير ما حتماً.

تساءلت متوترة:

- أى تفسير ؟!

تنحنح الدكتور (خالد)، قبل أن يقول:

- أظن أنه ينبغى توجيه هذا السؤال إلى البروفيسير (عمر)... أليس خبيراً فى الميتافيزيقا[1].

تلفتت (إلهام) حولها، قبل أن تتساءل فى قلق:

- بالمناسبة... أين هو؟!

هزَّ الدكتور (خالد) رأسه نفياً، وقال:

- كل ما أعلمه، هو أن رجل الأمن المصرى اصطحبه مع (شريف) إلى مكان ما.

تساءل الدكتور (أكرم) فى توتر:

- إلى أين ؟!... ولماذا ؟!

---

(1) الميتافيزيقا: علم ما فوق الطبيعيات، يعنى بدراسة كل الظواهر غير الطبيعية، التى تتعارض مع قواعد الفيزياء المعروفة، ولا يوجد تفسير علمى معروف لها.

"نريد فقط التيقّن مما رأيته..."...

قالها المقدّم (مشهور) لـ(شريف)، الذى يجلس متوتراً على مقعد خاص، يتصل بعدة شاشات، وكومة من الأسلاك، وسط حجرة بلا نوافذ، يقف فيها الكولونيل (أورويل)، متطلعاً إليه فى اهتمام كبير، والبروفيسير (عمر) يجلس خلف ثلاث شاشات كبيرة، فغمغم (شريف) فى عصبية:

- هل تعتقد أننى كاذب؟!

جلس (مشهور) على مقعد أمامه، وهو يقول فى هدوء:

- مطلقاً... أنا... بل كلنا واثقون من أنك تؤمن تماماً بأنك قد شاهدت ما وصفته.

قال (شريف) فى عصبية:

- لأننى شاهدته بالفعل.

أشار إليه البروفيسير (عمر)، قائلاً:

- لا تقلق يا صديقى... كل ما نفعله هنا، هو لمساعدتك على تذكّر التفاصيل الدقيقة فحسب.

سأله بكل توتره:

- وكيف يمكنكم هذا؟!

أشار البروفيسير (عمر) إلى قرص لامع، فى مواجهة (شريف) تماماً، وهو يجيب:

- بالتكنولوجيا.

حدّق (شريف) فى ذلك القرص فى توتر، فابتسم البروفيسير (عمر)، مكملاً:

- امنحنى ثقتك يا صديقى... نحن نعمل فى فريق واحد.

قال (شريف) فى عصبية:

- كلا... أنتم فريق، وأنا مشروعكم... هل نسيت ما قاله ذلك الأمريكى.

رمق (مشهور) الكولونيل (أورويل) بنظرة قاسية، قبل أن يقول:

- ربما لم يحسن التعبير فحسب.

تبادل البروفيسير (عمر) نظرة صامتة مع المقدَّم (مشهور)، ثم أشار إلى (شريف)، ثم إلى ذلك القرص اللامع، قائلاً:

- أنظر إليه فحسب يا صديقى، وثق فى أننى مصرى مثلك، ولن أفعل شيئاً يسيئ إليك قط.

حاول (شريف) أن يهدأ ويتماسك، وهو ينظر إلى ذلك القرص فى حذر، فضغط البروفيسير (عمر) زراً افتراضياً على شاشة اللمس أمامه، فبدأ ذلك القرص يدور، وهو يضئ وينطفئ بألوان مختلفة...

ثم راحت سرعته تتزايد...

وتتزايد...

وتتزايد...

وذلك الضوء المنبعث منه بدا وكأنه يحيط به...

بل شعر (شريف) وكأنه يخترق عقله، ويستقر فى ثنايا مخه، و..

وفجأة، اختفت الحجرة من حوله...

ووجد نفسه فى مكان آخر...

فى حجرته...

يرقد على فراشه...

وأمامه يخرج ذلك الظل الأحمر، من وسط فجوة فى منتصف الحجرة..

ثم راحت ملامح الظل الأحمر تتضح...

وتتضح...

وتتضح...

"عرفتنى... أليس كذلك ؟!... ..."

قالها الظل بالعربية، وهو يبتسم فى مودة...

وتفجرت قنبلة من الانفعالات، فى كل خلية من خلايا (شريف)..

قنبلة كادت تودى بحياته...

تماماً...

***

حمل صوت عالمى (ناسا) كل التوتر والانفعال، وهما يتحدثان إلى الجنرال (دوايت)، عبر اتصال مرئى، والأول يقول:

- ليست مجرَّد دائرة يا سيدى الجنرال.

تساءل (دوايت) فى توتر:

- متى ستنتهى مفاجآت تلك الورقة ؟!

أجابه الثانى:

- لقد حاولنا مقارنتها، بكل الدوائر الرقمية، المعروفة على كوكب الأرض، عندما حدثت المقارنة مع خريطة رقمية.

تساءل (دوايت):

- خريطة الكترونية؟!

أجابه الأوَّل بكل توتره:

- بل خريطة جغرافية يا جنرال.

اعتدل (دوايت) فى اهتمام، ومال نحو شاشة الاتصال، وهو يسألهما:

- لأى موقع على الأرض ؟!..

تبادل العالمان نظرة متردِّدة متوترة، قبل أن يقول الأوَّل:

- ليس موقعاً جغرافياً أرضياً يا جنرال.

حمل صوت الجنرال (دوايت) انبهاره، وهو يسألهما:

- أين إذن ؟!

أجابه الثانى مندفعاً:

- القمر.

تراجع (دوايت) في مقعده بحركة حادة، هاتفاً:

- أنتم؟!

قال الأول، في صوت ارتجف من فرط الانفعال:

- نعم يا جنرال... موقع بالقرب من ذلك المكان، الذي ظهر فيه الرجل الغامض... خريطة دقيقة للغاية، ومطبوعة بنظام ثلاثي الأبعاد.

بدا الجنرال شديد الاهتمام، وهو يسأل:

- وكيف هذا ؟!

أجابه الثاني في سرعة:

- عندما عرضناها لخيط من الممتوليزر، بزاوية خمسة وأربعين درجة، ظهر أمامنا مجسّم هولوجرامي للمكان، مع تخطيط سلكي له.

تساءل الجنرال، وهو يسيطر على انفعالاته بكل قوته:

- هل تعتقدان أنهم يحاولون إرشادنا إلى مكان ما.

تبادل العالمان نظرة أخرى، قبل أن يجيب الأوّل في حزم:

- بكل تأكيد.

تراجع الجنرال في مقعده، وراح يداعب عقله لحظات، وهو يفكر في عمق شديد، قبل أن يعتدل في حركة حادة، قائلاً:

- صلاني بـ(سى -١٧)

غمغم الثاني، وهو يضغط زراً أمامه:

- فوراً يا سيادة الجنرال.

اختفت صورة العالمين على الفور، وظهرت صورة حجرة أخرى، يجلس فيها رائد الفضاء (ميلروى)، الذي يحمل الرمز الكودي (سى- ١٧)، والذي التفت إلى الشاشة، فور سماعه إشارة الاتصال. واعتدل في احترام؛ عندما رأى صورة الجنرال (دوايت) على الشاشة، وقال:

- أوامرك يا جنرال.

مال الجنرال نحو الشاشة، وهو يسأله في اهتمام:

- قل لى يا (سى-١٧)... هل رصدت أجهزتك وجود أية إشارات غامضة على القمر، يوم التقيت بذلك الـ.... الشبح.

ازدرد (ميلورى) لعابه فى صعوبة، كما لو أن تلك الذكرى مازالت تزعجه فى شدة، وغمغم:

- كلا يا جنرال... فقط تلك المقابلة العجيبة، و...

بتر عبارته دفعة واحدة، وحملت عيناه نظرة فزع، وهو يحدّق فى الجدار خلف الجنرال (دوايت) مباشرة، مما جعل هذا الأخير يستدير فى تلقائية، لينظر إلى الجدار نفسه، حيث تراصت صور أفراد الفريق، قبل أن يعود ببصره إلى (ميلروى)، متسائلاً:

- ماذا هناك يا رجل ؟!

وعلى الرغم من أن (دوايت) رائد فضاء محنَّك، فقد ارتجف صوته فى شدة، وهو يهتف:

- إنه هو.

قالها، وهو يشير بسبَّابته إلى الجدار، مما حدا بالجنرال إلى الالتفات إليه مرة أخرى، متسائلاً فى انفعال:

- من تعنى ؟!

هتف (ميلروى) بكل انفعاله:

- ذلك الذى شاهدته على القمر... إنه هو.

واتسعت عينا الجنرال عن آخرهما...

فقد كان (ميلروى) يشير إلى صورة (شريف فؤاد)...

مباشرة.

***

الفصل السابع

"ولكن... ولكنك أنا ؟!..." ..

هتف (شريف) بالعبارة، فى صوت مختنق ذاهل، عندما تبدى له ذلك الكائن فى حجرته...

لم يعد ظلاً كما كان...

بل صار إنساناً كاملاً واضحاً...

إنسان هو صورة طبق الأصل منه...

أو أنه هو...

اتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يحدِّق فيه، فى حين قال الكائن فى هدوء:

- صدقنى... أنا أيضاً أشعر بالرهبة من هذا اللقاء.

غمغم (شريف)، ورأسه يتثاقل:

- من أنت ؟!... أو ما أنت ؟!

ابتسم ذلك الشئ، وهو يقول:

- ستدرك هذا بعد بعض الوقت، والآن دعنى أخبرك ما لدى، قبل مضى الوقت.

غمغم بكل توتره:

- أى وقت ؟!

أشار إليه ذلك الشئ بالصمت، وهو يقول:

- أرجوك... لا يمكننى الظهور فى وضوح، لأكثر من دقيقة واحدة.

اتسعت عينا (شريف) أكثر، وهو يغمغم:

- الظهور ؟!..

تحرَّك ذلك الشئ نحوه، فتراجع هو فى فراشه، وكاد ينكمش على نفسه فى

رعب...

وخاصة بسبب ما حدث...

الكائن، الذى بدا له جسداً متماسكاً، عبر المنضدة الصغيرة فى منتصف الحجرة، كما لو كان شبحاً...

وشهق (شريف) مع رؤيته هذا...

أطلق شهقة فزع، جعلت ذلك الشئ ينتبه إلى ما حدث، فتجاوز تلك المنضدة فى سرعة، وهو يقول:

- اهدأ يا (شريف)... لو أنك علمت من أنا، لن تفزع منى أبداً.

غمغم (شريف) فى رعب:

- سألتك فلم تجب.

ابتسم ذلك الشئ، وكأنه يحاول إزالة توتر (شريف) ورعبه، وهو يقول فى هدوء:

- أخشى أنك لن تستطيع استيعاب الأمر الآن، ولكن...

فجأة، اختفى صوته..

كانت شفتاه تتحرّكان، ولكن بلا صوت...

ثم راحت ملامحه تتلاشى...

وتتلاشى..

وتتلاشى..

لم يعد كائناً ذو ملامح...

لقد عاد ظلاً...

ظل أحمر داكن...

وتضاعف تثاقل جفنى (شريف)...

ودار رأسه فى شدة...

وحاول أن يقول شيئاً...

أى شئ...

ولكنه سقط فجأة فى غيبوبة عميقة... عميقة للغاية...

و...

"استيقظ يا (شريف)..."...

انتزعه صوت البروفيسير (عمر) من غيبوبته العميقة فجأة، فانتفض جسده فى عنف، قبل أن يفتح عينيه صارخاً:

- أين ذهبت ؟!

بدا وكأنه قد فوجئ، عندما وجد نفسه داخل حجرة الاختبار، يجلس على المقعد المتصل بالشاشات والأسلاك، وأمامه ذلك القرص اللامع، الذى توقف عن الدوران..

وفى حركة حادة، اعتدل فى مجلسه، هاتفاً:

- لقد ذهب.

ربت البروفيسير (عمر) على كتفه فى حنان أبوى، قائلاً:

- نعلم يا صديقى... أنت رويت لنا كل شئ.

هتف منزعجاً:

- أنا ؟!

ابتسم البروفيسير (عمر) فى حنان، مجيباً:

- نعم أنت.

ثم أشار إلى إحدى الشاشات، مستطرداً:

- لقد سجلنا كل شئ.

أطلق (شريف) زفرة قوية، وفرك عينيه فى عصبية، وهو يقول:

- لا أريد الاستمرار فى هذا.

تبادل الرجال الثلاثة نظرة صامتة، قبل أن يقول المقدّم (مشهور):

- أظنك تحتاج إلى مقابلة الجنرال (دوايت) أوّلاً..

- التفت إليه (شريف) فى حركة حادة:
- ومن الجنرال (دوايت) هذا ؟!
"تستطيع أن تقول: إننى المشرف على كل هذا يا مستر (فؤاد)..."
هكذا أجابه الجنرال (دوايت)، عندما التقى به فى مكتب بسيط، فى الطابق الثانى من المبنى الدائرى، فأجابه (شريف) فى عصبية:
- أذكر أننا التقينا فى (ناسا) يا جنرال... أنت أحد رجال (أوليمبوس)... أليس كذلك ؟!
ارتفع حاجبا (دوايت)، وهو يردِّد فى دهشة:
- (أوليمبوس) ؟!
هزَّ (شريف) كتفيه، مجيباً فى عصبية:
- هكذا نطلق على من يجلسون فى الطابق العلوى، ويضعون السياسات العليا هناك.
لم يبتسم الجنرال حتى لقوله، وإنما غمغم:
- آه.
ثم اتخذ وقفة عسكرية صارمة، مستطرداً:
- هل تريد حقاً الانسحاب من هذا يا مستر (فؤاد) ؟!
أجابه (شريف) فى حدة:
- نعم... وفوراً... وتذكَّر يا جنرال أنك لست تجلس فى (أوليمبوس) الآن... إننا فى (مصر)... وطنى الأم.
صمت (دوايت) لحظات، متطلعاً إليه، ثم قال فى هدوء صارم:
- لم تكن هناك ضرورة لكل هذه العدائية يا مستر (فؤاد).
تراجع شريف فى مقعده، وهو يقول فى توتر:
- أتعنى أننى حر فى الانسحاب ؟!..
تبادل (دوايت) نظرة مع المقدَّم (مشهور)، قبل أن يجيب فى حزم:

- كلا.

انتفض (شريف)، وهبَّ من مقعده صارخاً:

- ماذا تعنى ؟!... أأسير أنا هنا ؟!

انتقل الجنرال، من خلف المكتب إلى أمامه، وجلس على المقعد المواجه لـ(شريف) مباشرة، وهو يقول:

- ليس قبل أن أشرح لك الأمر بكل تفاصيله يا مستر (فؤاد).

تساءل فى عصبية:

- أى أمر ؟!

مال الجنرال نحوه، مجيباً فى حزم، وبكلمات بطيئة:

- السر يا مستر (فؤاد)... أخطر أسرار الكون .... فى الوقت الحالى.

ومرة أخرى شهق (شريف)...

شهق شهقة أكثر قوة...

بكثير...

***

أدار الدكتور (أكرم) عينيه فيما حوله، داخل تلك القبة الزجاجية العاكسة، ثم هبط ببصره إلى كل تلك الآلات والأجهزة الرقمية الحديثة، التى تحيط بدائرة معدنية فى منتصف الأرضية تماماً، والتفت إلى الكولونيل (أورويل)، متسائلاً فى حذر:

- وماذا يفترض أن أفعل بكل هذا ؟!

أجابه (أورويل) فى شئ من التعالى:

- أن تؤدى عملك.

صمت الدكتور (أكرم) لحظات، وهو يتطلع إليه، ثم مال نحوه، قائلاً فى صرامة شديدة:

- ليس قبل أن تؤدى أنت واجبك.

احتقن وجه (أورويل)، وهو يقول فى حدة:

- كيف تجروء على...

قاطعته صيحة هادرة غاضبة، من الدكتور (أكرم):

- اصمت.

تراجع الكولونيل (أورويل) فى دهشة مذعورة، ولكن الدكتور (أكرم) واصل فى عنف شديد:

- تتحدَّث بكل الصلف والغطرسة، وكأنك تملك هذا البلد، على الرغم من أنك لا تساوى شيئاً هنا بدوننا... إما أن تحترم وجودك على تراب وطنى، أو ترحل غير مأسوف عليك... هل تفهم كلماتى هذه جيداً، أم أترجمها لك إلى العربية.

اتسعت عينا الكولونيل (أورويل) عن آخرهما، وهو يحدِّق فى وجه الدكتور (أكرم) غير مصدّق، فاعتدل الدكتور (أكرم)، وبدا وكأنه ضغط زر مشاعره، فاستعاد هدوئه فى لحظة واحدة، وهو يقول مستطرداً:

- والآن، ماذا ينبغى أن أفعل هنا ؟!

ظلَّ (أورويل) لحظات صامتاً مشدوهاً، قبل أن يقول فى بطء متوتر:

- لم أقصد مضايقتك يا دكتور (أكرم).

تجاهل (أكرم) قوله هذا، وهو يكرِّر فى حزم:

- ماذا ينبغى أن أفعل هنا ؟!

التقط (أورويل) نفساً عميقاً، وحملت كلماته كل الاحترام، وهو يقول:

- إنه أمر يتعلَّق بالطاقة الكهرومغناطيسية يا دكتور (أكرم)... هذه البقعة المعدنية المستديرة، نريد أن يكون مقدار الطاقة الكهرومغناطيسية المحيطة بها هو...

صمت لحظة، ثم أضاف فى توتر:

- صفر.

انعقد حاجبا الدكتور (أكرم)، وهو يغمغم:

- صفر؟!... هل تعنى أن تصبح منطقة منعدمة المجالات الكهرومغناطيسية تماماً؟!

أومأ (أورويل) برأسه إيجاباً، مغمغماً:

- بالضبط.

صمت الدكتور (أكرم) لحظات مفكراً، ثم قال فى بطء:

- تعلم طبعاً أنه حتى الجاذبية الأرضية، تصنع مجالاً كهرومغناطيسياً.

أومأ (أورويل) برأسه، دون أن يجيب، فعاد الدكتور (أكرم) إلى صمته وتفكيره بضع لحظات أخرى، ثم عاد يدير بصره فى الآلات والأجهزة الحديثة من حوله، قبل أن يغمغم:

- لن يكون هذا سهلاً.

غمغم (أورويل) بدوره:

- ولكنك تستطيع القيام به... أليس كذلك؟!

حكَّ الدكتور (أكرم) ذقنه براحته لحظة، ثم أجاب:

- نستطيع تحقيق هذا لحظياً فى المعمل، عن طريق معادلة الطاقة الكهرومغناطيسية للمكان، و...

قاطعه (أورويل) فى لهفة:

- ولكنك تستطيع.

مرة ثالثة، ألقى الدكتور (أكرم) نظرة على ما حوله، ثم قال:

- أظننى أستطيع.

أطلق (أورويل) تنهيدة ارتياح، ولكن الدكتور (أكرم) استدرك فى صرامة:

- ولكن بشرط واحد.

عاد (أورويل) يشعر بالقلق، وهو يتساءل فى حذر:

- أى شرط؟!

شدَّ الدكتور (أكرم) قامته، وتضاعفت صرامته، وهو يجيب:

- أن ترحل من هنا.

وانتفض قلب الكولونيل (أورويل)...

بكل القوة...

***

"ما زلت أجهل حقاً ماذا أفعل هنا !!..."...

قالتها الدكتورة (أشلى) فى توتر ملحوظ، وهى تلوِّح بيدها اليمنى فى حركة عصبية، فهزَّت (إلهام) كتفيها، مغمغمة:

- هذا ينطبق علينا جميعاً.

تنحنح الدكتور (خالد)، قائلاً:

- أعتقد أنهم قد أجروا ذلك الاتصال، الذى سيقلب مفاهيمنا عن الحياة رأساً على عقب.

تطلعَّت إليه (أشلى) فى تساؤل متوتر، فأضاف (أنور):

- الاتصال بكائنات من كواكب أخرى.

شهقت الدكتورة (أشلى) على الرغم منها، ومن أن هذا ما تبحث عنه طوال الوقت، من خلال دراستها وعملها، وهتفت فى صوت مبهور:

- أتعتقد أن هذا قد حدث بالفعل !؟

قلب الدكتور (خالد) كفه، مجيباً:

- ألديك تفسير آخر !؟... لقد جمعونا من عدة تخصصات، فى هذا المكان، الذى لم نكن نتصوَّر حتى وجوده، والتعاون الشديد بين الأمن المصرى والأمن الأمريكى، والذى يوحى بأن الأمر يتجاوز الحدود والمصالح القومية، إلى أهمية دولية، تتعلق بأمن الكوكب كله.

تساءلت:

- هل تشير إلى...

قاطعها، دون أن يتمالك نفسه:

- اتصال مع كائنات أخرى.

بدت أنفاسها المبهورة مسموعة، وهى تستمع إليه، وغمغمت:

- رباه !!... لقد حلمت بهذا طيلة عمرى، ولكننى لم أتصوَّر أن أحيا لأراه يحدث بالفعل.

أومأ الدكتور (خالد) برأسه موافقاً، وقال معقباً:

- أنا تصوَّرت أن هذه حقيقة لا تحتاج إلى المناقشة والجدل... من المستحيل أن نكون وحدنا فى الكون... ليس من المنطقى أو حتى من العلمى، أن يكون كل هذا الكون قد خلق من أجلنا فقط، ثم إنه لدى قناعة دينية تتعلق بهذا.

غمغمت (أشلى) فى حذر، حمل لمحة من الاستنكار:

- دينية ؟!

أشار (أنور) بيده، وقال:

- فى (مصر) لا يمكننا فصل الدين عن العلم... ربما لا تميلون أنتم فى (أمريكا) إلى هذا، ولكننا لا نستطيع إغفال عقولنا عنه هنا.

مطَّت الدكتورة (أشلى) شفتيها، مغمغمة:

- هذا شأنكم.

بدت (إلهام) عدوانية مندفعة، وهى تقول فى شبه تحد:

- نعم... هذا شأننا.

رمقتها (أشلى) بنظرة لا مبالية، ثم عادت تلتفت إلى الدكتور (خالد) متسائلة:

- وماذا يقول دينكم فى هذا الشأن ؟!

ابتسم الدكتور (خالد)، وهو يجيب:

- ليس من الضرورى أن يقال هذا مباشرة، ولكنا نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى، الذى خلق عشرات ومئات الآلاف من أشكال الحياة على الأرض، بكافة صورها البرية والمائية والجوية، لن يعجز عزَّ وجل عن خلق مئات الصور

الحياتية العاقلة، على كواكب أخرى.

صمتت لحظات مفكرة، ثم قالت فى بطء حذر:

- هذا لا يتعارض مع النظرة العلمية للأمر، فنحن نرى أنه حتى لو كان الاحتمال هو واحد لكل ألف مليار، فستوجد عشرات الاحتمالات لوجود حياة أخرى عاقلة، وسط مليارات المليارات من النجوم والمجرات.

قالت (إلهام)، بنفس اللهجة شبه المتحدية:

- ديننا يقول صراحة أيضاً، إن الله سبحانه وتعالى قد جعل من الماء كل شئ حى، وهذه أيضا قاعدة علمية... أليس كذلك ؟!

بدت (أشلى) مبهورة، وهى تقول:

- هل قال دينكم هذا، منذ مئات السنين ؟!

بدا (أنور) منتعشاً بانبهارها، وهو يتمتم:

- وأكثر.

تبادل معه الدكتور (خالد) نظرة حملت كل الارتياح، قبل أن يقول للدكتورة (أشلى):

- هل تعلمين أن الله سبحانه وتعالى أقسم فى القرآن الكريم بمواقع النجوم، وقال عزَّ وجل: إنه قسم لو تعلمون عظيم، وهذا قبل نظرية أينشتين بمئات السنين، والتى أثبتت أن مواقع النجوم التى نراها، ليست هى مواقعها الحقيقية، وأنه لا يمكننا تحديد مواقعها الحقيقية، إلا أثناء كسوف كلى للشمس.

هتفت، وقد تضاعف انبهارها:

- حقا ؟!

هتفت (إلهام) معترضة:

- دكتور (خالد)... لقد انحرفنا بحديثنا، من مناقشة علمية إلى دعوة دينية.

هتفت بها بالعربية، فلم تفهم (أشلى) ما تعنيه، مما جعلها تعقد حاجبيها فى عصبية، فقال الدكتور (خالد) فى هدوء، وباللغة الإنجليزية:

- أنت على حق يا (إلهام)... لابد وأن نعود إلى حديثنا الأصلي؛ حتى نفهم ما يحدث هنا.

أشارت الدكتورة (أشلي) بيدها، قائلة:

- لو أنهم قد أتموا هذا الاتصال بالفعل، فسيفسر هذا وجود عالمة فيزياء فلكية مثلي في الفريق.

هزَّ كتفيه، قائلاً:

- وربما يفسِّر وجودي وفريقي أيضاً، فهناك بعض النظريات، التي تعزي الغموض في عالمنا، والخاص بأشياء بلا تفسير، أو أماكن غير مفهومة، إلى أن بعض المخلوقات الفضائية قد زارت الأرض، في أزمنة قديمة.

التقطت الدكتورة (أشلي) نفساً عميقاً، وقالت:

- ربما يكون وجودنا تفسيراً لكل هذا، ولكن ماذا عن ذلك المهندس المصري، والتجربة العجيبة التي مرَّ بها ؟!

تبادل الكل نظرة صامتة، وإن انطلق السؤال ذاته في عقولهم جميعاً...

نعم...

ماذا عن (شريف) وتجربته ؟!...

ماذا ؟!..

***

تطلَّع (شريف) في لهفة عصبية متوترة، إلى الجنرال (دوايت)، الذي جلس يتطلَّع إليه لحظات، بدوره، قبل أن يقول:

- مستر (فؤاد)... هل تعرف احتمال أن يتطابق الحمض النووي لشخص ما، تطابقاً تاماً، مع الحمض النووي لشخص آخر ؟!

حمل صوت (شريف) كل توتره وعصبيته، وهو يقول:

- ليس هذا مجال دراستي، ولكنني وفقاً لما أعرفه، فهذا مستحيل تماماً.

وافقه الجنرال (دوايت) بإيماءة من رأسه، قائلاً:

- إنه بالفعل مستحيل تماماً.

هتف (شريف):

- ولكن ما صلة هذا بى ؟!

تراجع الجنرال (دوايت) فى مقعده، وأدار بصره إلى المقدَّم (مشهور)، الذى ظل صامتاً منذ البداية، والذى تنحنح قبل ان يقول:

- أستاذ (شريف)... ما سأخبرك به يعد من أعظم أسرار الأمن العالمى فى هذه اللحظة، وأصدقك القول إننى لم أستطع أنا نفسى تصديقه فى البداية، لولا أن أحضر الأمريكيون ما يثبت أنه حقيقة.

تزايدت عصبية (شريف)، وهو يقول:

- الأمن العالمى ؟!... سمعت كثيراً عن مصطلح الأمن القومى، أما الأمن العالمى...

هزَّ كتفيه فى عصبية، وكأنه بهذا يكمل عبارته، فقال (مشهور):

- ربما هو مصطلح جديد، ولكن الظرف الحالى حتم وجوده؛ لأن الأمر أكبر من أن يتعلق بأمن قومى لبلد واحد هذه المرة.

فقد (شريف) أعصابه وهو يهتف:

- أهذا ما ستشرحونه لى، أم أنه مزيد من الغموض ؟!

أشار الجنرال (دوايت) للمقدَّم (مشهور) بالصمت، وهو يقول:

- مستر (فؤاد)... هل تؤمن بوجود مخلوقات عاقلة أخرى غيرنا فى الكون ؟!

هتف (شريف):

- لن أجيب هذا... أنا هنا بحثاً عن الأجوبة، وليس لإجابة أسئلة حمقاء.

تبادل (دوايت) نظرة أخرى مع (مشهور)، ثم قال:

- فليكن يا مستر (فؤاد)... الواقع أن وجود مخلوقات عاقلة أخرى فى الكون لم يكن مجرَّد خيال علمى، أو نظريات تطرح فى مطبوعات علمية... فنحن، ومنذ عام ١٩٤٧م، نعلم علم اليقين أنه هناك مخلوقات عاقلة أخرى

فى الكون.

تراجع (شريف) فى بطء على مقعده، وهو يغمغم مبهوراً:

– حادثة (روزويل) ؟![1]

أشار الجنرال بيده، وكأنما هذا خارج المناقشة، وتابع فى شئ من الصرامة:

– ومنذ أسابيع قليلة، حدث لقاء حى، مع كائن، نضع فى اعتبارنا أنه قد ينتمى إلى عالم آخر.

غمغم (شريف) فى توتر:

– قد ؟!

أومأ الجنرال برأسه إيجاباً، وتابع:

– قد هذه تعود إلى نتائج العينة الجينية، التى أعطاها لنا ذلك الكائن طواعية، والتى تحوى أربعة وعشرين زوجاً من الكروموسومات، وليس ثلاثة وعشرين مثل سائر الكائنات الأرضية.

تلاحقت أنفاس (شريف)، وهو يقول:

– التقيتم به حقاً، وترك لكم عينة من جيناته ؟!!!

مطّ الجنرال شفتيه، وتابع دون أن يتوقف عند تعليق (شريف):

– الذى أذهلنا بحق، هو أنه عند استبعاد الزوج الإضافى من الكروموسومات، فى ضفيرته الجينية، وجدنا لدينا تطابقاً مذهلاً، بين الثلاثة والعشرين زوجاً المتبقية، والبصمة الجينية لبشرى على كوكبنا، بنسبة مائة فى المائة.

ثم مال نحوه فى حركة مفاجئة، جعلته يتراجع برأسه متفادياً، والجنرال يضيف بلهجة صادمة:

---

(1) حادثة (روزويل): فى أحد أيام شهر يوليو، عام ١٩٤٧م، استيقظ أهالى بلدة (روزويل)، فى ولاية (نيومكسيكو)، على دوى هائل، ونيران فى الأفق، وقالت التقارير الأولية بسقوط طبق طائر فى المنطقة، ولكن سرعان ما حاصر الجيش الأمريكى المنطقة، ونفى هذا تماماً.

- وهذا البشرى هو أنت... أنت يا مستر (فؤاد).

وكانت صدمة لـ (شريف)...

صدمة العمر.

***

الفصل الثامن

بكل اللهفة، اختطفت (درو)، زوجة (شريف) الحسناء هاتفها المحمول، فور انطلاق رنينه، وضغطت زر الاتصال، وهى تهتف:

- حبيبى !!

أتاها صوت (شريف) حنوناً دافئاً، وهو يقول:

- أوحشتنى.

اختلجت شفتاها، وهى تجيب:

- أموت شوقاً إليك.

سالت دموعها من عينيها، دون أن تشعر، وهو يقول:

- قريباً يا حبيبتى... سنلتقى قريباً.

بكت فى حرارة، هاتفة:

- عد يا (شريف)... عد... أرجوك.

شعر بغصة فى حلقه مع بكائها، وبدا صوته مختنقاً، وهو يقول:

- مهمتى لم تنته بعد يا حبيبتى.

هتفت:

- أية مهمة تلك !؟... مندوب الحكومة الأمريكية زارنى، وسلمنى شيكاً بقيمة ثلاثة ملايين دولار... لماذا تدفع الحكومة مثل هذا المبلغ، لو لم تكن المهمة قاتلة !؟... لماذا !؟

أغلق عينيه فى قوة، وتضاعف شعوره بالغصة فى حلقه، مما أعجزه عن الكلام بضع ثوان...

وعندما تكلَّم، كان صوته أكثر اختناقاً فى حلقه، وهو يغمغم:

- حبيبتى... هذا المبلغ يكفى لسد رهن المنزل، وربما شراء منزل أفضل فى ولاية أخرى... ويكفى لتأمين مستقبلك، و....

قاطعته صارخة باكية:

- فليذهب المال والمنزل وحتى المستقبل إلى الجحيم ... أريدك أنت يا (شريف)... انت.

كانت تصرخ على نحو متواصل، حتى أنه اضطر إلى الصراخ:

- حبيبتي... اسمعيني... اسمعيني أرجوك.

سمع بكاءها ونحيبها على الطرف الآخر، فخفض صوته، مستطرداً:

- حبيبتي... هل تثقين بي ؟!... هل تثقين بي يا حبيبتي ؟!

كررها أكثر من مرة، حتى سمعها تغمغم، من وسط نحيبها:

- بالطبع يا حبيبي... بالطبع.

ازدرد لعابه في صعوبة، قبل أن يقول:

- المبلغ ليس لأن المهمة قاتلة.

بكت في مرارة، وهي تقول:

- لماذا تدفعه الحكومة إذن ؟!

أجابها في سرعة:

- لأن هذا كان شرطي لقبول المهمة.

هتفت:

- أية مهمة ؟!

كان صادقاً تماماً، وهو يجيبها:

- مهمة علمية خالصة يا حبيبتي، تصادف أنني الوحيد، من دون أهل الأرض جميعاً، القادر على القيام بها... أقسم لك إن ما أقوله حقيقة... حقيقة خالصة.

لسبب ما، اشتمت الصدق في صوته ولهجته، وتهدج كلماته، فخفت نحيبها، وهي تغمغم:

- هل تقسم ؟!

هتف على الفور:

- أقسم بحبنا... وبابنتنا القادمة.

غمغمت:

- (سلمى).

ابتسم ابتسامة شاحبة، وهو يغمغم:

- وأم (سلمى).

صمتت لحظات، سمع خلالها نحيبها، قبل أن تغمغم في حرارة:

- عدني أن تعود إلى سالماً.

ازدرد لعابه في صعوبة، وهو يقول:

- أعدك.

أنهى المحادثة، وأغلق عينيه في قوة، وكأنه يقاوم انفعالاً جارفاً في أعماقه، فتراجع الجنرال (دوايت) في مقعده، وهو يسأله:

- هل تشعر الآن بالارتياح ؟!

أومأ (شريف) برأسه في بطء، مجيباً:

- قليلاً.

شعر المقدَّم (مشهور) بالتعاطف معه، وهو يقول في حنان:

- لقد اتخذت القرار الصحيح.

رفع (شريف) عينيه إليه، وهو يقول في أسى:

- ولكنني مازلت أجهل دوري في هذه اللعبة.

كان من الواضح أن (دوايت) يجيد العربية؛ فقد اعتدل في اهتمام، وهو يقول في حزم:

- ليس لعبة يا مستر (فؤاد)، بل هي أسمى مهمة يقوم بها بشري، من أجل

كوكبه وحضارته كلها.

أدار (شريف) بصره إليه، قائلاً:

- مازلت لم أحصل على الجواب بعد.

بدا المقدَّم (مشهور) شديد الاهتمام بمعرفة الجواب مثله، فنقل الجنرال (دوايت) بصره بينهما، وصمت لحظات، قبل أن يقول فى حزم:

- فليكن... سأخبرك يا مستر (فؤاد).

ومع كلمات (دوايت) التالية، راحت عينا (شريف) تتسعان عن آخرهما... فالمطلوب منه لم يكن بالفعل مهمة عادية...

بل مهمة صادمة...

كألف ألف صاعقة...

أو أكثر...

***

شعر رائد الفضاء (ميلروى) بتوتر ما بعده توتر، وهو يقف أمام مدير المهام الفضائية فى (ناسا)، قائلاً:

- سيِّدى... أرجو اختيار رائد فضاء آخر لهذه المهمة.

قال مدير المهام فى غضب:

- هل ترفض المهمة يا (سى- ١٧) ؟!

حمل صوت (ميلروى) كل توتره، وهو يجيب:

- لن أحتمل العودة إلى هناك يا سيِّدى.

انعقد حاجبا مدير المهام فى غضب، وجذب ورقة، ألقاها مع قلم أمام (ميلروى) هاتفاً:

- وقع هذه إذن أيها الرائد.

توتر (ميلورى) أكثر، وهو يقول:

- وما هذه يا سيدًى ؟!

صاح الرجل فى وجهه:

- استقالتك.

تراجع (ميلورى) مصدوماً، وهاتفاً:

- إلى هذا الحد ؟!

بذل مدير المهام جهداً خرافياً؛ للسيطرة على أعصابه، وهو يقول:

- الأمر شديد الأهمية والخطورة أيها الرائد، وأنت رائد الفضاء الوحيد هنا، الذى يدرك خطورة ما نواجهه... كنتم ثلاثة رواد فضاء، فى المهمة الأخيرة، ولكن ذلك الشئ اختارك أنت؛ ليتم اتصاله معك... قد يكون هذا من قبيل المصادفة، أو قد يكون أمراً مقصوداً مدروساً... والورقة التى سلمك إياها، تحوى خريطة دقيقة، لموقع قريب من موقع الاتصال، ولا يمكننا المخاطرة بإرسال رائد فضاء آخر، يشير الخبراء إلى احتمال فشل المهمة كلها، لو ذهب.

وعلى الرغم منه، ارتجف صوت (ميلورى)، وهو يقول:

- هل تعنى أننى وحدى أستطيع بلوغ ذلك المكان يا سيدًى ؟!

أومأ مدير المهام برأسه إيجاباً، وقال:

- هذا ما يعتقده الخبراء.

كان (ميلورى) يشعر بتوتر شديد فى أعماقه، إلا أن إحساسه بواجبه جعله يشد قامته، فى وقفة ثابتة، وهو يقول:

- فى هذه الحالة أقبل المهمة يا سيدًى.

أطلق مدير المهام تنهيدة ارتياح، ونهض من مقعده، ومدَّ يده يصافح (ميلورى)، قائلاً:

- صدقنى أيها الرائد، لقد اتخذت القرار الحكيم، ويوماً ما، سيلمع اسمك فى تاريخ هذا الكوكب، وربما بأكثر مما لمع اسم (يورى جاجارين)[1]، و(نيل

أرمسترونج)[2]

وشدَّ على يده بكل القوة...

وكل الاحترام...

***

فى قاعة واحدة كبيرة، جلس الدكتور (خالد) يراجع مع مساعده (أنور) وطالبته (إلهام) بعض المخطوطات القديمة، فى حين راحت الدكتورة (أشلى) تراجع بعض الخرائط الفضائية الفلكية، على شاشة هائلة، تحتل منتصف جدار كامل...

كانت تعمل فى صمت تام، دفع الدكتور (خالد) إلى الهمس، وهو يقول:

– رباه!... يالها من مخطوطات نادرة... لو حصلنا عليها منذ عدة أعوام، لقفزت أبحاثنا ألف خطوة على الأقل.

غمغمت (إلهام):

– هذا لو كنا نعلم بوجودها.

ابتسم (أنور) وهو يتطلَّع إليها، ثم همس بدوره:

– دوماً ما تخفى الحكومات مثل هذه المخطوطات النادرة.

ارتفع صوت (إلهام)، وهى تقول فى حدة:

– ليس هذا من حقها.

التفتت إليها (أشلى) فى استنكار، فأشار إليها الدكتور (خالد) برأسه معتذراً، وهمس لـ(إلهام):

– حاولى تخفيف عصبيتك هذه.

---

(1) يورى أليكسافيتش جاجارين (٩/٣/١٩٣٤ – ٢٧/٣/١٩٦٨م)، أول رائد فضاء يدور حول الأرض، فى المركبة السوفيتية (فوستوك–١).

(2) نيل أرمسترونج (٥/٨/١٩٣٠ – ٢٥/٨/٢٠١٢م): أول رائد فضاء يمشى على سطح القمر، الذى سافر إليه على متن (أبوللو–١١) فى ٢١ يوليو ١٩٦٩م.

غمغمت فى توتر:

- كلما حاولت، استفزتنى أفعالهم.

أشار (أنور) بسبَّابته، هامساً:

- الواقع أن ما تحويه تلك المخطوطات بالغ الخطورة... المفترض أن يعود تاريخها إلى القرن الثالث الميلادى، وعلى الرغم من هذا، ففيها أوصاف لأشياء لم يتم ابتكارها قبل القرن التاسع عشر.

قال الدكتور (خالد) فى خفوت:

- هذا ينطبق على المخطوطة التى بين يدى أيضاً... اسمعا ما كتبه هذا الراهب.

تطلَّع إليه الإثنان فى اهتمام شديد، فقرأ فى خفوت كلمات ذلك الراهب القديم:

- "أشباح الذين كانوا جابت الهيكل... كانت تحاول تحذيرنا من أمر ما، ولكن كيف يمكنك أن تتواصل مع أشباح هى طيف أحمر، عاجز عن الكلام..." ...

ارتفع حاجبا (إلهام) واتسعت عيناها، وهى تقول:

- طيف أحمر.. وكأنه يصف ما يحدث هنا.

أومأ (خالد) برأسه مؤيِّداً، قبل أن يقول:

- انظروا ما يقوله فى فقرة تالية: "وسط الساحة الكبيرة، رأينا الدائرة الحمراء تنبت، وأشباح الذين كانوا تأتى... رحنا كلنا ندندن بدعاء دينى، ولكن أشباح الذين كانوا لم تذهب... فقط راحت ترسم شيئاً بأيديها، وشعرنا كلنا بقشعريرة تسرى فى أجسادنا، ثم تلاشت الظلال... ذهبت مع الدائرة الحمراء كما جاءت" ...

غمغم (أنور) مبهوراً:

- قشعريرة فى أجسادهم.

أشار إليه الدكتور (خالد) بيده، قائلاً:

- المجالات الكهرومغناطيسية يمكن أن تفعل هذا.

قالت (إلهام) متوترة:

- وتلك الإشارات، التى تحدَّث عنها الراهب، هل تعتقدان أنها كانت محاولة لتوصيل رسالة ما.

أجاب الدكتور (خالد) على الفور:

- أنا واثق فى هذا.

تساءل (أنور) فى اهتمام:

- وماذا عن وصفهم بـ(الذين كانوا) ؟!

غمغمت (إلهام):

- الأشباح هى أطياف لموتى، كانوا يوماً من الأحياء.

تساءل:

- أتعتقدين أن هذا ما كان يعنيه ؟!

قلبت كفيها، قائلة فى توتر:

- وماذا يمكن أن يعنى سوى هذا ؟!!

أشار إليهما الدكتور (خالد) بالكف عن المناقشة، وهو يقول:

- بغض النظر عن المقصود... من الواضح أن ما يحدث الآن هو تكرار لما وصفته المخطوطات، فى القرن الثالث الميلادى.

تساءلت (إلهام):

- هل تعتقد يا دكتور (خالد) إن هذا يتفق مع نظرية وصول سكان الفضاء إلى هنا، فى الأزمنة الغابرة ؟!

هزَّ كتفيه، قائلاً:

- ستظل مجرَّد نظرية، حتى يمكن إثباتها أو نفيها.

"لا يوجد أى جديد...

قالتها الدكتورة (أشلى) بلهجة حادة، فأسرع الدكتور (خالد) يسألها، وهو

يشير إلى (إلهام) بالتراجع:

- ماذا عنيت بأنه لا يوجد جديد يا دكتورة (أشلى) ؟!

أشارت بيدها، مجيبة:

- لقد أرسلوا كل ما سجله تليسكوب (هبل)، خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة، وكلها تبدو لى عادية، لا توجد إشارة لأى تغيير.

سألها الدكتور (خالد):

- وماذا كان من الممكن أن يتغيَّر، فى خرائط فلكية ؟!

حاولت أن تبتسم فى عصبية، وهى تجيب:

- لم يخبرونى.

سألتها (إلهام) فى استنكار:

- عم كنت تبحثين إذن ؟!

أجابتها (أشلى) فى تحد:

- عن إبرة فى كومة من القش.

تراجعت (إلهام) مستفزة، فتابعت (أشلى) فى ذعر:

- ظل دقيق، يضاف إلى كوكب ما، أو أحد أقمار (زحل) مثلاً، أو كويكب فى غير موضعه... أو نيزك يتخذ مساراً غير تقليدى... أى شئ يمكن أن يوحى بحركة مركبة فضائية، من عالم آخر.

التفتت (إلهام) بحركة حادة إلى (أنور)، وتبادل كلاهكما نظرة مصدومة قبل أن تهتف (إلهام):

- نظرية سكان الفضاء إذن.

اعتدلت (أشلى)، وهى تقول فى حماس علمى:

- إنها واحدة من النظريات، التى نرى لها مردوداً كبيراً، فى الأوساط العلمية... ظواهر عديدة فى هذا العالم، توحى بأن العصور القديمة قد شهدت أموراً تفوق قدراتها، أو الحضارات التى كانت سائدة عليها فى حينها... التفسير الوحيد هو أن حضارة عاقلة، من عالم آخر، وجدت سبيلها إلى الأرض، فى تلك

الأزمنة الغابرة، وتركت عليها أثاراً كبيرة[1]
اندفع (أنور) يقول:
- هذا صحيح، حتى أن بعض العلماء يقول إن المسلات الفرعونية، ليست سوى محاولة لنسخ الصواريخ، فى هيئة حجرية[2]
مطّت الدكتورة (أشلى) شفتيها، وقالت:
- تبالغون كثيراً فى عظمة حضارتكم.
قالت (إلهام) فى تحد عصبى:
- على الأقل لدينا حضارة.
اعتدلت (أشلى) فى حركة حادة، فاندفع الدكتور (خالد) يقول، محاولاً تغيير دفة الحديث:
- هل تعلمون أن الكولونيل (أورويل) قد غادر القاعدة بلا رجعة ؟!
مطّت (أشلى) شفتيها، ولوّحت بيدها، قائلة:
- كان هذا شرط الدكتور (أكرم)؛ ليؤدى عمله.
اعتدل الدكتور (خالد)، يسألها فى اهتمام:
- وما هو عمله بالضبط ؟!
وصمتت الدكتورة (أشلى)، على الرغم من كل العيون المتعلقة بها، فى انتظار الجواب...
فالواقع أنه لم يكن لديها جواب...
على الإطلاق...

***

راجع البروفيسير (عمر) كل أجهزته وشاشاته، وتيقن من أنها كلها تعمل

(1) حقيقة.
(2) نظرية علمية فلسفية.

فى كفاءة، قبل أن يدير بصره إلى تلك الدائرة المعدنية، فى منتصف القاعدة الزجاجية، قائلا:

- أنا على أهبة الاستعداد.

غمغم الدكتور (اكرم)، وهو يضبط آخر أجهزته:

- وأنا أيضاً.

ثم التفت إلى المقدَّم (مشهور)، مردفاً:

- يمكنك الاتصال بالجنرال الآن.

عقد (مشهور) كفيه خلف ظهره، وهو يقول فى حزم:

- لقد فعلت... إنه فى طريقه مع المهندس (شريف) إلى هنا.

بدت الدهشة على الرجلين، وتساءل البروفيسير (عمر):

- (شريف) !؟... وما صلة (شريف) بهذا.

صمت المقدَّم (مشهور) لحظة، قبل أن يجيب فى حزم:

- إنه هو المشروع... هل نسيتما !؟

تبادل الرجلان نظرة متوترة متسائلة صامتة، استمرت حتى دلف الجنرال (دوايت) مع (شريف) إلى القاعة، وعلى عكس توتر الأخير، بدا الأوَّل حازماً صارماً، وهو يقول:

- هل الكل مستعد !؟

التفت إليه الجميع، وقال المقدَّم (مشهور):

- بالتأكيد...

أشار الجنرال إلى (شريف)، قائلاً:

- تفضل يا مستر (فؤاد).

تردَّد (شريف) لحظات، وبدا من امتقاع وجهه أنه يشعر بتوتر شديد، ثم اتجه فى خطوات مترددة متعثرة إلى حيث تلك الدائرة المعدنية، ولكن المقدَّم (مشهور) اعترض طريقه، وأمسك ذراعه، وهو يقول فى حزم:

- مهلاً يا أستاذ (شريف).

نظر إليه الجنرال فى استنكار، وهتف فى غضب:

- ماذا تفعل أيها المقدم ؟!

هتف به (مشهور):

- بل ماذا تفعل أنت يا جنرال ؟!... أليس من المفترض أن تخبرنا بما تنتويه، قبل أن تقدم عليه.

قال الجنرال، فى عصبية صارمة:

- مستر (فؤاد) تطوَّع للقيام بالمهمة.

هتف الدكتور (أكرم):

- ولكننا لم نفعل... ببساطة لأننا نجهل ماهية هذه المهمة.

وقال البروفيسير (عمر) فى حدة:

- لسنا دمى تحرِّكها بخيوطك يا جنرال.

بدا الجنرال أكثر عصبية، وهو يقول:

- على كل منكم أن يؤدى عمله فحسب... لقد خضعت لشرطك يا دكتور (أكرم)، وأبعدت الكولونيل (أورويل) عن هنا، على الرغم من كفاءته، وعليك أن تفى بدورك، وتضع تلك الدائرة فى حالة الصفر الكهرومغناطيسى، وأنت يا بروفيسير (عمر)، عليك أن تسجِّل ما سيحدث لحظة بلحظة.

قال المقدَّم (مشهور) فى صرامة:

- الأستاذ (شريف) مواطن مصرى، ولن نسمح بـ...

قاطعهم (شريف) فى حدة:

- توقفوا عن فرض وصايتكم علىَّ.

صدم قوله الكل، وابتسم الجنرال فى ظفر، و(شريف) يتابع فى غضب وحده:

- الجنرال (دوايت) شرح لى طبيعة المهمة، وأنا قبلت القيام بها طواعية، ولا أحد يملك فرض رأيه الشخصى على قرارى.

ساد صمت ثقيل لحظات، قبل أن يقول الدكتور (أكرم) فى توتر:

- هل تعرف تأثير وجودك، فى وسط يخلو تماماً من أية طاقة كهرومغناطيسية ؟!

وعلى الرغم من توتر (شريف)، أجاب فى حزم:

- أنا مستعد لكل الاحتمالات.

تبادل الكل نظرة شديدة التوتر، فشدّ الجنرال قامته، وقال فى صرامة:

- هل نبدأ عملنا أيها السادة ؟!

تبادل الرجال نظرة أخرى، ثم أفلت المقدّم (مشهور) ذراع (شريف)، وتراجع خطوتين، فى حين قال الدكتور (أكرم) فى خفوت:

- فليكن... قف وسط تلك الدائرة المعدنية يا أستاذ (شريف).

ازدرد (شريف) لعابه فى توتر، ودفع قدميه دفعاً، حتى بلغ منتصف الدائرة المعدنية، فأشار الدكتور (أكرم) إلى طاقم الفنيين، قائلاً:

- الآن.

بدأت الأجهزة عملها؛ لمعادلة الطاقة الكهرومغناطيسية، وشعر (شريف) فى البداية بطنين عجيب فى أذنيه، ثم لم يلبث أن شعر بخدر يسرى فى أوصاله، حتى صار من العسير عليه أن يقف على قدميه، فغمغم:

- هل يمكننى الجلوس ؟!

ودون انتظار للجواب، جلس وسط تلك الدائرة المعدنية، التى راحت مؤشرات أجهزة الدكتور (أكرم) تشير إلى انخفاض الطاقة الكهرومغناطيسية بها رويداً رويداً...

وتضاعف الخدر فى جسد (شريف)، فترك جسده يسترخى وسط الدائرة المعدنية، وشعر بالمشهد من حوله يصطبغ بلون أحمر باهت، سجلته أجهزة البروفيسير (عمر)، فغمغم مبهوراً:

- يا إلهى!!... يا إلهى !!

كانت هناك دائرة حمراء، تتكّون حول (شريف) بالفعل، والطاقة

الكهرومغناطيسية تنخفض وسط الدائرة المعدنية...

وتنخفض...

وتنخفض...

وكلما انخفضت، بدت الدائرة الحمراء أوضح وأوضح...

وازداد تراخى جسد (شريف)، وبدا له أنه يسقط فى غيبوبة ناعمة...

أما الدكتور (أكرم) فقد راح قلبه يدق فى عنف، ومؤشر الطاقة الكهرومغناطيسية ينخفض فى سرعة...

ثم، وبقفزة واحدة، أشار المؤشر إلى الصفر...

ودوت فى القاعة الزجاجية فرقعة مكتومة، كادت تحطم قبتها...

وبعدها اتسعت عيون الكل، فى ذهول مصدوم...

فبعد ثانية واحدة، اختفت تلك الدائرة الحمراء...

واختفى معها (شريف)...

تماماً.

***

الفصل التاسع

حاول رائد الفضاء (ميلروى) عبثاً، ازدراء لعابه، عبر حلقه الجاف، وهو يقف مرة أخرى على سطح القمر، فى نفس الموضع، الذى التقى فيه ذلك الكائن شبه البشرى من قبل...

وجوده فى نفس المكان كان يبعث فى جسده قشعريرة، يعجز عن كبح جماحها، مع استعادته - مرغماً - لتلك الذكرى...

كانت أعصابه مشدودة للغاية، حتى أن جسده كله قد انتفض، عندما سمع مسئول (ناسا)، عبر جهاز الاتصال فى خوذته، يقول:

- حدد موقعك يا (سى- ١٧).

كان يعلم أن جهاز تحديد الموقع فى خوذته، ينقل موقعه فى دقة، وعلى الرغم من هذا فقد أجاب فى توتر:

- أنا فى موقع الاتصال (أ).

قال مسئول (ناسا)، محاولاً أن يخفى توتره المماثل:

- المفترض، وفقاً للخارطة، أن تكون على مسافة مائتى متر غرباً، من الموقع المنشود.

تحرَّك (ميلروى) فى بطء، فى الاتجاه المشار إليه، وهو يقول:

- أتجه إليه بالفعل... أصل بعد دقيقة وعشرين ثانية.

انهى الاتصال وراح يتقافز تلك القفزات القصيرة، التى تماثل السير، على سطح القمر، حتى أضئ مصباح أخضر فى خوذته، معلناً بلوغه الهدف، فتوقَّف يتلفت حوله لاهثاً، فى حيرة متوترة، قبل أن يقول:

- المفترض الآن أننى فى نقطة الهدف بالضبط، ولكن كل شئ من حولى معتاد، ولا يوجد ما يثير الانتباه.

آتاه صوت مسئول (ناسا)، فى توتر لم يستطع إخفائه:

- وفقاً للخارطة، فالهدف أسفلك، وليس حولك.

مع قوله، شعر (ميلروى) بالأرض تهتز اهتزازات خفيفة أسفله، فهتف بكل توتره:

- رباه !!... إنه بالفعل...

انحبست باقى الكلمات فى حلقه، عندما هبطت به تلك البقعة، التى يقف فوقها، على نحو مباغت، وسط ما بدا أشبه بأسطوانة معدنية نصف لامعة...

وعلى الرغم منه، راح يلهث فى انفعال شديد، وهو يهبط...

ويهبط...

ويهبط..

ثم، وبلا مقدمات، توقّف جسده عن الهبوط، على نحو كاد يختل معه توازنه..

وشعر بجسده ينسحب أفقياً، كما لو أنه يندفع فوق قضبان حديدية ناعمة...

وفى سرعة، ارتفعت تلك الأسطوانة المعدنية نصف اللامعة؛ لتسد الفتحة التى هبط منها...

وعلى الفور، أضئ المكان كله، كما لو أن الضوء ينبعث من جدرانه كلها...

واتسعت عينا (ميلروى) عن آخرهما...

فما رآه من حوله كان مذهلاً بحق..

بكل المقاييس...

***

"لا فائدة !!... "...

غمغم الدكتور (أكرم) بالعبارة، وهو يفرك عينيه فى إرهاق شديد، فامتقع وجه (إلهام)، وهى تقول فى فزع:

- ما الذى يعنيه هذا ؟!... هل فقدنا المهندس (شريف) ؟!

عضَّ المقدَّم (مشهور) شفته السفلى، وهو يغمغم فى مرارة:

- لقد حاولت منع حدوث هذا.

أشار الدكتور (أكرم) بيده، مغمغماً فى ندم:

- من كان يتصوَّر ما حدث ؟!... إنه أمر يتعارض مع كل القواعد العلمية المعروفة.

كان البروفيسير (عمر) يعمل فى جهد على جهازه الراصد، وهو يغمغم فى عصبية:

- أتفق معك فى هذا.

بدا الجنرال (دوايت) شديد التوتر، وهو يقول:

- سأعمل على استدعاء طاقم من أفضل علمائنا، و...

قاطعه المقدَّم (مشهور) فى صرامة:

- كلا.

انتفض (دوايت)، وهو يهتف فى حدة:

- هل نسيت من تخاطب يا هذا ؟!

أجابه (مشهور) بكل الصرامة:

- يبدو أنك أنت من نسى أين يضع قدميه يا جنرال... إنك هنا على أرض مصرية... السلطة العليا فيها للمصريين وحدهم، فمع احترامى لرتبتك، فأنت هنا ضيف مرحَّب به فحسب.

احتقن وجه الجنرال، وهو يقول محتداً:

- كيف تجرؤ أيها الـ...

قاطعه المقدَّم (مشهور) فى صرامة قاسية:

- كيف جرؤت أنت على التضحية بمواطن مصرى يا جنرال ؟!

صمت الجنرال (دوايت) لحظات، ثم لم يلبث أن شدَّ قامته، وهو يقول فى صرامة عسكرية:

- هل استشرت رؤسائك فيما تفعل أيها المقدَّم ؟!

صدمه (مشهور) بإجابته الصارمة:

- وأنا أتحدَّث بلسانهم يا جنرال.

عاد الجنرال (دوايت) إلى صمته بضع لحظات، ثم قال فى بطء:

- لم يكن من الممكن أن يعمل مستر (فؤاد) فى (ناسا)، دون أن يحصل على الجنسية الأمريكية.

أطل تساؤل متوتر من عينى المقدَّم (مشهور)، على نحو جعل الجنرال يقول فى صلابة ظافرة:

- وهذا يعنى أنه، ومن الناحية الرسمية، مواطن أمريكى، من حقنا السعى لصالحه، تحت أى علم يكون.

ران على المكان صمت رهيب، وانتقلت العيون كلها من (دوايت) إلى (مشهور)، فى انتظار ما سيسفر عنه الموقف...

ثم قطع المقدَّم (مشهور) ذلك الصمت، وهو يقول فى صرامة:

- يمكنك أن تتقدَّم بشكوى لوزارة الخارجية يا جنرال.

تراجع الجنرال فى دهشة مصدومة، فى حين شدَّ المقدَّم (مشهور) قامته هذه المرة، ورفع صوته، وهو يقول فى حزم:

- هذا المكان تحت قيادتى أيها السادة، منذ هذه اللحظة، وحتى إشعار آخر.

احتقن وجه الجنرال (دوايت) فى شدة، وهو يغمغم:

- هكذا ؟!

تابع (مشهور)، وكأنه لم يسمع تعليقه:

- سيجتمع الفريق كله خلال ساعة واحدة، وعلى الكل بعد خمسة أيام من البحث غير الناجح، أن نضع برنامجاً لإيجاد وسيلة علمية: لمعرفة كيف ولماذا وأين اختفى المهندس (شريف فؤاد).

قالها بالإنجليزية، فغمغمت (أشلى) فى استنكار:

- سيقود الفريق مصرى ؟!

التفت إليها الكل بنظرة أكثر استنكاراً، فانكمشت على نفسها، وغمغمت فى توتر:

- لم أعمل تحت قيادة مصرى من قبل.

قالت (إلهام) بلهجتها المتحدية:

- ستشعرين بالمتعة لهذا.

أشار (مشهور) بيده فى صرامة، قائلاً:

- كفى... لا معارك جانبية... الهدف الوحيد، الذى سيسعى إليه الكل، هو معرفة أين ذهب المهندس (شريف).

وخيم الصمت على الجميع...

فهذا هو السؤال الأهم بالفعل...

أين اختفى المهندس (شريف) ؟!..

أين ؟!...

***

امتقع وجه صاحب الصوت الخشن، وهو ينهى اتصاله مع مسئول (ناسا)، والتفت إلى الجالسين، قائلاً فى صوت، حمل كل توتره:

- لقد انقطع الاتصال مع (سى-١٧) على القمر.

غمغم أحدهم مبهوتاً:

- انقطع ؟!

شحبت الوجوه كلها، والكل يتبادلون نظرات غاية فى التوتر، ثم غمغم آخر فى عصبية:

- وماذا عن رائدى الفضاء الآخرين ؟!

أجابه صاحب الصوت الخشن بنفس التوتر:

- الاتصال معهما مستمر، ولقد مشطا المنطقة كلها، دون أن يعثرا على أدنى أثر له.

تساءل ثالث فى خفوت:

- وماذا عن هدف الخارطة ؟!

أشار صاحب الصوت الخشن بذراعيه، مجيباً:

- منطقة عادية، بالقرب من بحر العواصف... لا يميِّزها شئ... (سى-١٧) تبخَّر عندها تماماً.. تلاشى دون أن يترك خلفه ما يمكن أن يقود إليه.

عادوا يتبادلوا نظرة مفعمة بالخوف والتوتر، قبل أن يسأل الأوَّل فى قلق:

- الناس لا تتلاشى هكذا، دون أن تترك خلفها ما يشير إلى تواجدها على الأقل.

غمغم صاحب الصوت الخشن:

- ما عدا (سى-١٧)... انتهت آثار أقدامه عند نقطة، تلاشى بعدها تماماً، كما لو أن أشعة مجهولة قد سحبته إلى أعلى.

قال آخر فى توتر:

- أو جذبته إلى أسفل.

ازداد امتقاع وجه صاحب الصوت الخشن، وهو يغمغم مكرِّراً:

- أو جذبته إلى أسفل... نعم... ولم لا ؟!

ثم عاد يختطف سمَّاعة الهاتف الداخلى، قائلاً:

- أرسل آخر صورة لآثار أقدام (سى-١٧)، على سطح القمر.

قالها، وأنهى الاتصال على الفور، ثم انتقل إلى وحدة التحكُّم فى الشاشة الكبيرة، وضغط زر التشغيل، فظهرت على الشاشة صورة، لآخر آثار أقدام (سى-١٧) على سطح القمر...

واحتبست أنفاس الجميع، وهم يحدقون فى الشاشة...

فبكل وضوح، أثبتت الشاشة ما كان يدور فى مخاوفهم...

آثار أقدام (سى-١٧) كانت، فى آخر خطواتها، مبتورة...

لقد سحبه شيء ما، إلى أسفل بالفعل...

إلى باطن القمر...

خيِّل إليهم أن القاعة قد خلت من الهواء أو كادت، مع تلاحق أنفاسهم، وصاحب الصوت الخشن يشير إلى الشاشة، قائلا بكل توتره:

- هناك يكمن السر.

غمغم أحدهم بأنفاس مبهورة:

- هل تعتقد أن رائدى الفضاء الآخرين، يمكنهما أن...

قاطعه صاحب الصوت الخشن، قبل أن يكتمل سؤاله:

- كلا... ليست لديهما أية إمكانيات؛ لبلوغ مرحلة أكبر.

تساءل آخر:

- ماذا يمكن أن يحدث إذن ؟!

صمت صاحب الصوت الخشن لحظات، ثم قال:

- كل ما نملكه هو أن نرسل مكوك فضائى، مع معدات كافية؛ لفحص تلك المنطقة.

تساءل ثالث، فى خفوت متوتر:

- وهل سيبقى (سى-١٧) حياً، حتى يصل المكوك الآخر ؟!

طال صمت صاحب الصوت الخشن هذه المرة، قبل أن يجيب، فى مزيج من الحزم والتوتر واليأس:

- كلا.

وهنا هبط على الكل صمت ثقيل...

للغاية...

***

حمل صوت السفير الأمريكى نبرة متعالية، وهو يجلس أمام رئيس الجمهورية

المصرى، قائلاً:

- الإدارة الأمريكية تعترض بشدة، على معاملة السلطات المصرية لأحد جنرالاتها، وهو ما لا يصح حدوثه، مع ما تقدمه (أمريكا) لـ(مصر)، من مساعدات اقتصادية وعسكرية، و...

قاطعه رئيس الجمهورية، فى هدوء صارم:

- ينبغى ألا يتعارض هذا مع السيادة المصرية أيها السفير.

قال السفير، فى مزيج مستفز، من الصرامة والغطرسة:

- ولا مع الكرامة الأمريكية يا فخامة الرئيس.

صمت رئيس الجمهورية لحظات، وهو يتطلع إليه، ثم قال فى حزم:

- رجلنا أدى واجبه، وفقاً لمقتضيات وظيفته أيها السفير.

قال السفير مستنكراً:

- هكذا ؟!

أجابه الرئيس فى هدوء صارم:

- هكذا.

نهض السفير فى حركة حادة، وقال فى عصبية واضحة:

- سأبلغ إدارتى موقفكم يا فخامة الرئيس، وأخشى أن ينعكس هذا على استمرار المعونات العسكرية، و...

قاطعه الرئيس فى صرامة:

- (محمد على).

لم يفهم السفير ما يعنيه هذا فى البداية، ثم انتبه إلى أن الرئيس ينادى مدير مكتبه، الذى دلف إلى المكان استجابة للنداء، وهو يقول فى احترام:

- أمرك سيادة الرئيس.

أشار إليه الرئيس، قائلاً:

- أبلغ وزير الدفاع الروسى، أننى مستعد لاستقباله مساء اليوم.

غمغم السفير مبهوتاً:

- وزير الدفاع الروسى ؟!

اعتدل الرئيس فى مقعده، وهو يقول فى حزم:

- أمر داخلى لا شأن لك به، أيها السفير الأمريكى.

تنحنح السفير فى توتر، وهو يقول:

- فخامة الرئيس... الصداقة المصرية الأمريكية أقوى من مجَّرد حادث فردى.

أجابه الرئيس بكل الصرامة:

- السيادة المصرية تفوق حتى الصداقة مع أية دولة أخرى أيها السفير.

صمت السفير بضع لحظات، والتوتر يملأ كل لمحة من ملامحه، ثم قال بكل ما يغلى فى عروقه من انفعالات:

- سأبلغ رؤسائى.

غمغم الرئيس، وهو يشير بيده، وكأنه ينهى المقابلة:

- عظيم.

انصرف السفير الأمريكي، ووجهه يكاد يتفجّر، من فرط الاحتقان، فاعتدل الرئيس، يسأل مدير مكتبه:

- ما آخر الأخبار، من المنطقة ألف وواحد ؟!

أشار مدير المكتب بيده، مجيباً:

- رجلنا يسيطر على الموقف تماماً يا سيادة الرئيس.

سأله الرئيس بكل الاهتمام:

- وماذا عن المهندس الذى اختفى ؟!

أجابه مدير المكتب فى سرعة:

- خطة استعادته ستبدأ...

وألقى نظرة على ساعته، قبل أن يضيف:

- الآن يا سيادة الرئيس.

وعلى الرغم من خبراته الطويلة، والمواقف الصعبة العديدة، التى اعتاد مواجهتها.. لم يستطع الرئيس منع نفسه، من الشعور العنيف بالقلق..

هذا لأن ما تواجهه (مصر)، ويواجهه العالم هذه المرة، هو أخطر ما مر به فى حياته...

كلها...

***

"عبر الفجوة..."

قال البروفيسير (عمر) الكلمة فى انفعال واضح، فتطلع إليه الجميع فى صمت مبهور، قطعه المقدَّم (مشهور)، وهو يسأل:

- كيف علمت ؟!

أشار البروفيسير (عمر) إلى شاشة جهازه مجيباً:

- خفضت سرعة عرض الصور على الشاشة، إلى صورة واحدة كل ثلاثين ثانية.

غمغمت (إلهام)، وهى تقترب؛ لتلقى نظرة أوضح على الشاشة:

- أهذا ممكن ؟!

أجابها وهو يتنحى جانباً؛ حتى يفسح مجال الرؤية للجميع:

- ليس فى الأجهزة العادية.

تطلع الكل فى اهتمام بالغ، إلى ما تعرضه الشاشة فى بطء شديد...

كان (شريف) يرقد وسط تلك الدائرة المعدنية، ومن حوله تتكوَّن دائرة حمراء، أخذت تتسع، مع انخفاض الطاقة الكهرمغناطيسية من حوله...

وتتسع...

وتتسع...

ومع بلوغ مستوى الطاقة ما يقرب من الصفر، استقرَّت الدائرة الحمراء،

حول جسد (شريف)، الذى بدا كالفاقد الوعى وسطها...

ثم قطعت شهقة الدكتورة (أشلى) القوية الصمت...

فمع بطء العرض الشديد، بدت ثلاثة ظلال حمراء واضحة، تخرج من تلك الدائرة الحمراء، وتحمل جسد (شريف)، ثم تعود به إلى داخل الدائرة...

ثم دوت تلك الفرقعة..

واختفت الدائرة...

واختفى (شريف)..

وعلى الرغم من تكرار هذا، سرت فى جسد الكل قشعريرة باردة، مع رؤية جسده يختفى...

ومع نهاية العرض، هبط عليهم جميعاً صمت ثقيل...

ثقيل للغاية...

ثم كان المقدِّم (مشهور) هو من قطع الصمت هذه المرة، وهو يقول متنحنحاً:

- إذن فقد أخذوه !!

غمغمت (أشلى):

- السؤال هو: إلى أين ؟!

تمتمت (إلهام)، فى صوت لم يفارقه التوتر بعد:

- نعم... إلى أين ؟!..

بدا البروفيسير (عمر) منزعجاً، وهو يقول:

- ولكن الأشباح لم تختطف بشرياً من قبل ... عالمها يختلف عن عالمنا، و...

قاطعه المقدِّم (مشهور) فى توتر:

- ومن قال إنها أشباح ؟!

قلب البروفيسير (عمر) كفيه، متسائلاً:

- وماذا يمكن أن تكون ؟!

أجابته (أشلى) فى انفعال:

- إما مخلوقات من عالم آخر، أو من بعد آخر.

هتف (أنور):

- سنعود إلى تلك النظرية إذن.

أشار الدكتور (خالد) إلى مخطوط فى يده، وهو يقول:

- ربما نجد الجواب هنا.

سأله المقدَّم (مشهور) فى اهتمام:

- وما هذا بالضبط ؟!

لوَّح الدكتور (خالد) بالمخطوط، قائلاً:

- أقدم مخطوط، أمكننى التوَّصل إليه... مخطوط وضعه راهب تبتى قديم، يصف بكلماته حالة مماثلة:

تساءلت (أشلى) فى خفوت منفعل:

- أشباح اختطفت بشرى ؟!

هزَّ رأسه نفياً، مجيباً:

- بل ما هو أعجب من هذا.

قالها، وفتح المخطوط، وبدأ يقرأ...

وتفجَّر الذهول فى عقل الجميع...

بلا استثناء...

***

رأسه كان يدور...

ويدور...

ويدور...

وفى عقله، ارتسمت دائرة حمراء..

وبدا له وكأنها تلتهم خلايا مخه، خلية بعد أخرى، فى بطء وحشى مخيف مؤلم...

ومن حوله سمع عدة أصوات...

أصوات بشرية، ولكنها تتحدَّث بلغة غير مفهومة...

فمخارج الألفاظ بدت له أشبه بالعربية...

ولكن الكلمات ليست كذلك...

كان من الواضح أنه هناك أكثر من شخص، يلتفون حوله...

وأنه يرقد على فراش مخملى ناعم...

أو أن جسده يسبح فى الهواء..

كان يريد أن يفتح عينيه، إلا أن هذا بدا له عسيراً، وكأن ثقلاً هائلاً يجثم على جفنيه...

وعلى الرغم من هذا فقد حاول...

وحاول...

وحاول...

ثم بدا له أنه قد بدأ يستوعب ما يقال من حوله...

الكلمات بدأت تتضح، كما لو أنها قد ترجمت إلى العربية...

"الآن يمكنه أن يفهمنا !؟...."...

سمع أحدهم يلقى السؤال، وآخر يجيبه فى اهتمام:

- المفترض هذا.

تساءل صاحب السؤال الأول:

- ألست واثقاً !؟

أجابه الأخر:

- إنها أوّل مرة نختبر فيها هذا.

بذل (شريف) كل جهده ليفتح عينيه، وهو يغمغم:

- أين أنا ؟!... ومن أنتم ؟!

أدهشه أنه لم يلق سؤاله بالعربية...

ولا بأية لغة يعرفها...

لقد ألقى السؤال بلغة لا يعرفها...

وربما لا يعرفها أي مخلوق على وجه الأرض...

ولكن العجيب أنه نطقها...

والأعجب أنه فهمها...

"هل استعدت وعيك ؟!..." ...

أتاه السؤال بنفس اللغة، التي فهمها، على الرغم من ثقته في أنه لم يسمعها في حياته من قبل، فغمغم مكررًا:

- أين أنا ؟!

شعر بأنفاس تقترب منه، مع صوت يجيب في هدوء:

- اطمئن... مازلت على كوكب الأرض.

الجواب جعله يفتح عينيه، و...

وعلى الرغم منه، اتسعت عيناه عن آخرهما بكل الذهول، وهو يحدِّق فيما حوله...

فما سمعه لم يكن ينطبق على ما يراه من حوله...

من المستحيل أن يكون بالفعل على كوكب الأرض !!...

من المستحيل تماماً !

***

الفصل العاشر

"كما كان الأوّلون نكون... "...

قرأ الدكتور (خالد) هذه الكلمات، فى المخطوط التبتى القديم، فغمغمت (إلهام) فى عصبية:

- من يقصد بالأولين ؟!

قالت الدكتورة (أشلى) فى حدة:

- ألا تحمل جيناتك الوراثية ذرة من الصبر ؟!

هتفت بها (إلهام) فى عصبية:

- ليس هذا من شأنك.

قال الدكتور (خالد) فى صرامة:

- الأفضل أن نركّز على عملنا، لو أردنا استعادة زميلنا.

أطبقت كلتاهما شفتيها مع كلماته، وإن تبادلتا نظرة متحدية، فى حين قال (أنور) فى اهتمام:

- دعنى أكرّر السؤال يا دكتور (خالد)... ماذا كان يقصد راهب (التبت)[1] بكلمة (الأوّلين) هذه.

صمت الدكتور (خالد) لحظة، ثم أجاب فى حذر:

- من سادوا الأرض فى البداية.

مطّت الدكتورة (أشلى) شفتيها، وهى تقول مستنكرة:

- ليس الديناصورات بالتأكيد.

---

(1) التبت: منطقة ودولة سابقة، فى (آسيا) الوسطى، كان يطلق عليها قديماً اسم (سقف العالم؛ نظراً لأنها تقع على ارتفاع (٤٩٠٠) متراً، واليوم لها حكومة فى المنفى، بقيادة الدلاى لاما، بعد أن احتلتها (الصين).

التفت إليها فى دهشة:

- ومن تحدَّث عن الديناصورات ؟!

أجابته فى صرامة، ليس لها عملياً ما يبررُّها:

- الديناصورات وحدها سادت الأرض، منذ مائتين وثلاثين مليون عام، وحتى خمسة وستين مليون عاماً مضت، عندما انقرضت فى العصر الطباشيرى؛ بسبب كارثة غير معلومة بالتحديد، والإنسان لم يظهر على الأرض، إلا بعد انقراضها بملايين السنين[1].

أشار بسبَّابته، قائلاً:

- هذه واحدة من النظريات العلمية.

هتفت:

- بل هى نظرية موثقة.

ظل هادئاً، وهو يقول:

- بل هى واحدة من نظريات مختلفة؛ فلو أنك تهتمين بالتاريخ القديم، بقدر اهتمامك بالفلك والفضاء، لعلمت أنه هناك عدة نظريات تعارض هذا، وتؤكد أن الإنسان تواجد مع الديناصورات، فى وقت واحد، فى الأزمنة الغابرة.

عادت تهتف مستنكرة:

- مستحيل !!... كل النظريات تؤكِّد أن الإنسان والديناصورات لم يجتمعا قط.

كادت (إلهام) تنفجر فى وجهها، وهمَّ (أنور) بقول شئ ما، عندما استوقفهما الدكتور (خالد) بإشارة من يده، وهو يقول:

- لعلك لم تقرأى مقال (بوب دوتكو)، الذى أشار فيه إلى وجود أدلة، تثبت أن الإنسان قد رأى الديناصورات، رأى العين، فى مرحلة ما... وصفها (ماركو بولو)، الرحالة الإيطالي الشهير، وتحدَّث عنها المؤرخ القديم (هيرودوت)،

---

(1) نظرية علمية.

وأشار إليها (الإسكندر) الأكبر، وحتى الرسوم الفرعونية القديمة، نقلت لنا بعضها[1].

لوحت بذراعها كلها، هاتفة:

- خيال جامح فحسب.

هزَّ رأسه نفياً، وهو يقول:

- عندما يصف بشر ديناصورات، انقرضت قبل ظهور الإنسان، فهذا له احتمالان، لا ثالث لهما... إما أنهم استنبطوا شكلها وهيئتها الحية، من أشكال هياكل قديمة عثروا عليها، أو أن القدامى رأوها رأى العين، وعايشوها، وتركوا رسوماً لها، أو وصفاً دقيقاً لهيئتها... ولما لم تكن العلوم قد تطوَّرت فى تلك العصور، على النحو الذى يسمح بإعادة تكوين هيئة زاحف عملاق قديم، استناداً إلى سمات هيكله العظمى، لا يتبقى لنا إلا أن أحدهم قد رأى الديناصورات رأى العين، وهذا لا يتأتى، إلا لو كان الإنسان قد عاش مع الديناصورات فى حقبة واحدة، على عكس الشائع علمياً.

اختلفت ملامحها، بين الشك والاستنكار والعصبية، ولكن صوتها انخفض وهى تقول:

- إنك تهدم بهذا عدة نظريات علمية يا دكتور (خالد).

هزَّ كتفيه، قائلاً:

- هكذا العلم يا عزيزتى (أشلى)... إهانة مستمرة للذكاء البشرى... علماء يضعون نظرية، تفسِّر بعض الغموض، ولكنها تحيط عشرات الأمور الأخرى بغموض أكثر، ثم تأتى نظرية جديدة، تفسِّر ما غمض على النظرية الأولى، ولكنها تحيط أموراً أخرى بغموض أكثر وهكذا... هذا هو المسار الطبيعى للعلم... أليس كذلك؟!

غلب شكها استنكارها هذه المرة، فانخفض صوتها أكثر، وهى تغمغم:

- لا يوجد أى دليل على هذا.

---

(1) حقيقة.

أجابت (إلهام) هذه المرة:

- ولا يوجد دليل على العكس أيضاً.

وربما لأول مرة، التفتت إليها (أشلى) دون توتر، وهى تغمغم:

- الدراسات العلمية والحفريات، تقول: إن الإنسان لم يظهر بشكله البدائى على الأرض، إلا منذ ستة ملايين عام فحسب، أما الإنسان الحديث كما نعرفه، فقد ظهر فى (أفريقيا)، منذ مائتى ألف عام فحسب[1].

مطّ الدكتور (خالد) شفتيه، وهو يهز رأسه لحظات، قبل أن يسأل الدكتورة (أشلى) بغتة:

- هل قرأت كتاب (سيموس ويلز)، الذى صدر عام ١٨٩٧م، والذى يعد من أندر الكتب حالياً.

غمغمت:

- هل تعنى (الناس الأوائل) (The First People)؟![2]

أومأ برأسه إيجاباً، وقال:

- فى ذلك الكتاب، تحدّث (ويلز) عن جنس عاقل ذكى، تواجد على كوكب الأرض، وكانت له حضارة عظيمة، سبقت أو تواكبت مع عصر الديناصورات.

هتف، فى خفوت متخاذل:

- لست أظنك تصدّق مثل هذا الهراء !!

هم بإجابتها، لولا أن تنحنح (أنور)، وقال فى تردّد:

- معذرة يا دكتور (خالد)... سامحينى يا دكتورة (أشلى)، ولكننى أعتقد أن هذه المحاورة العلمية لن تساعدنا، فى استعادة زميلنا المفقود.

تضرّج وجه (أشلى) بحمرة خجل، فى حين غمغم الدكتور (خالد):

- لا أحد يعلم ماذا يمكن أن يساعدنا يا فتى.

---

(1) نظرية علمية.

(2) الكتاب موجود بالفعل.

نقلت (إلهام) بصرها بين ثلاثتهم، قبل أن تقول:

- ما رأيكم لو ننضم إلى الباقين ؟!... ربما لو تبادلنا الأفكار... ربما.

لم تكن عبارتها مكتملة، ولكنها كانت واضحة، حتى أن الجميع التفتوا إليها فى صمت تام...

صمت ثقيل...

للغاية...

***

كل شئ حوله كان مدهشاً...

مبهراً...

ومذهلاً...

فعلى عكس الصخور الصماء، والصحراء الباردة، التى تمتد إلى مدى البصر، على سطح القمر، كانت تلك القاعة، التى وجد (ميلروى) نفسه داخلها، تحفة تكنولوجية من الطراز الأوّل...

أو فوق الأوّل...

أرضية مصنوعة من قطعة واحدة، من معدن لامع، له لون شمبانى باهت، مع حمرة خفيفة...

جدران مضيئة على نحو خلّاب مبهر...

شاشات هولوجرامية كبيرة، تسبح فى فراغ القاعة..

خريطة كونية ثلاثية الأبعاد، تصوّر كوكب الأرض من الفضاء...

أو أنه كوكب شبيه بالأرض...

كوكب يحوى كل القارات السبع المعروفة[1]...

ولكن ليس بالترتيب المعروف...

---

(1) القارات السبع: (آسيا)، (أوروبا)، (أفريقيا)، (أستراليا)، (أمريكا الشمالية)، (أمريكا الجنوبية)، (القارة القطبية الجنوبية - أنتاركتيكا).

كانت متقاربة كلها، على نحو يختلف عما هى عليه، تاركة باقى مساحة الكوكب كمحيط هائل متصل..

أو مثل (تيثيس) (TeThys)، فى النظرية القديمة[1]..

وفى فراغ القاعة، كانت تسبح عبارات وكلمات، بلغة غير معروفة على الأرض...

وعلى إحدى الشاشات الهولوجرامية، كان هناك جزء يضئ وينطفئ، وكأنه يدعو رائد الفضاء الأمريكى للاقتراب منه...

وبكل ما يعتمل فى نفسه من انفعالات، قال (ميلروى)، عبر جهاز الاتصال فى خوذته:

- (ناسا)... هل ترون ما أراه.

لم يتلق جواباً، فأغلق جهاز الاتصال وأعاد تشغيله، قائلاً:

- (ناسا)... هل تسمعونى ؟!

مرة أخرى، لم يتلق جواباً، فغمغم فى توتر:

- كان ينبغى أن يشاركوننى هذا.

ازدرد لعابه فى صعوبة، وتعلق بصره بتلك النقطة المضيئة، على الشاشة الهولوجرامية الكبيرة، ثم اتجه إلى تلك الشاشة، وتردَّد بضع لحظات، قبل أن يمد يده، ويلمس تلك النقطة المضيئة، و....

"إخلع خوذتك أيها الرائد..." ...

انتفض جسده كله، داخل حلته الفضائية، عندما انبعث ذلك الصوت، من كل مكان بالقاعة تقريباً، وتلفت حوله فى توتر، مغمغماً فى دهشة مستنكرة:

- أخلع خوذتى.

عاد ذلك الصوت مجهول المصدر يكرِّر:

---

(1) تقول النظريات الجغرافية القديمة أن الأرض كانت تتكون من قارتين كبيرتين(جندوانا) و(لوراسيا). ومحيط هائل هو (تيثس) ثم حدثت زحزحة للقارات. مع مرور الزمن، فصارت (جندوانا) و(لوراسيا) سبع قارات، وكلتاهما كانت جزءاً من القارة الأم (بانجيا).

- إخلع خوذتك... الجو ملائم لك.

تردَّد (ميلروى) لحظات، ثم ضغط زر رفع خوذته فى حذر، فتوقَّف ضخ الأكسجين داخلها على نحو تلقائى، ورفعها فى حذر، وهو يستنشق الهواء من حوله...

ولدهشته، بدا له الهواء نقياً منعشاً...

ومناسباً...

وبكل دهشته، تمتم:

- أين أنا بالضبط ؟!

ألقى سؤاله، وهو لا يتوقع الحصول على جواب له، إلا أنه فوجئ برد تلقائى سريع:

- داخل كبسولة تعارف خاصة.

غمغم فى توتر:

- تعارف مع من ؟!

أتاه ذلك الصوت الهادئ، يجيب:

- شاهد.

ومع الكلمة، راحت الشاشة الهولوجرامية تعرض، ما بدا أشبه بفيلم تسجيلى ثلاثى الأبعاد...

واتسعت عينا (ميلروى) عن آخرهما...

فما يراه، على تلك الشاشة الهولوجرامية، كان مبهراً مذهلاً...

بكل المقاييس...

***

"ماذا أنتم ؟!... "...

هتف (شريف) بالسؤال، بكل الرعب فى أعماقه، وهو يحدِّق فى الوجوه الملتفة حوله...

كائنات لها أجساد بشرية التكوين، ولكن رؤوسها نامة الاستدارة، بها عينان واسعتان، بينهما أنف كبير، أسفله فم دقيق...

أما الرؤوس، فكانت صلعاء تماماً...

الكل كانوا متشابهين، كما لو أنه قد تم استنساخهم من خلية واحدة...

أما المكان المحيط به، فقد أصابه برعب حقيقي....

كان يرقد علي شئ أشبه بدفق هوائى، يسبح جسده فوقه فى نعومة، ونافذة كبيرة أمامه، تطل على مبان عالية بعيدة متناسقة، خلفها سماء اختلطت زرقتها بحمرة خفيفة، مع قليل من سحب رمادية، تميل أطرافها إلى البرتقالية...

إنه ليس على كوكب الأرض حتماً...

كان هذا أول ما خطر بباله، وهو يحدق فى كل ما حوله، فى رعب شديد، و...

"إهدأ أرجوك... لا نريد بك شراً..."...

سمع الكلمات وفهمها فى وضوح، على الرغم من أنها لم تنطق بأية لغة معروفة، فحدق فى وجه قائلها فى ارتياع، وهو يقول:

– لماذا أحضرتمونى إلى هنا ؟!

مال عليه أحد أصحاب الوجوه المستديرة، وقال فى هدوء ومودة:

– ستعود إلى عالمك... اطمئن.

حاول أن يعتدل، فوق تلك الوسادة الهوائية، وهو يقول فى توتر عصبى:

– لماذا اختطفتمونى من عالمى ؟!

رآهم يتبادلون نظرة بائسة، بعيونهم الكبيرة الواسعة، قبل أن يقول آخر:

- كانت فرصة مثالية للتواصل. لم نستطع إضاعتها.

هتف، وهو مازال يحاول النهوض عبثاً:

- أى تواصل ؟!

مد أحدهم يده إليه؛ لمساعدته على النهوض، ولكنه تراجع فى فزع، وكأنما يخشى أن يلمسها، فقال صاحب اليد فى ارتباك:

- أردت مساعدتك فحسب.

تردد (شريف) لحظات، ثم مد يده إليه فى حذر. فالتقطها فى رفق، وجذبه فى خفة، مما ساعده على النهوض، فوق تلك الوسادة الهوائية الناعمة، فجلس على طرفها، وشعر بها تتكيَّف مع وضعه. فغمغم:

- هذا أفضل بالتأكيد.

ثم انتبه فجأة إلى الموقف، فعاد يهتف فى توتر:

- كيف يتأتى أن أفهمكم ؟!... لغتكم تختلف عن أية لغة عرفتها فى حياتى !!..

تبادلوا نظرة أخرى بعيونهم الواسعة، قبل أن يقول أحدهم:

- ليس هذا هو التغيير الوحيد، الذى صنعناه بك، حتى يمكنك التعايش مع طقسنا.

امتقع وجهه، وهو يتساءل مبهوتاً:

- ماذا فعلتم بى ؟!

حاول أحدهم تهدئته بلهجة ناعمة، وهو يجيب:

- نسبة الأكسجين فى هوائنا، تقل كثيراً عن نسبته فى موطنك، والجاذبية كذلك تختلف بعض الشئ، ولهذا كان من الضرورى تكييف جسدك؛ حتى لا تتعرَّض للخطر هنا.

جف حلقه، وهو يسأل فى صعوبة:

- ماذا فعلتم ؟!

تردَّدوا جميعاً لحظات، ثم قال أحدهم فى حذر:

- قمنا بتعديل موروثاتك قليلاً.

اتسعت عيناه فى رعب، وهو يهتف للمرة الثالثة:

- ماذا فعلتم بالله عليكم ؟!

أجاب المواجه له فى حذر:

- أضفنا إليك مورِّثات قوية، تجعل جسدك قادراً على التكيف، مع أية

ظروف خارجية.

شعر بحلقه كصحراء جافة، وهو يسأل:

- أى نوع من المورِّثات ؟!

مرة أخرى تبادلوا النظر، ثم لوَّح أحدهم بيده، فى حركة ناعمة، وهو يجيب:

- مورِّثات ما تسمونه (دب الماء) فى وطنك.

مع حركة يده الناعمة، ارتسمت فى الهواء صورة ثلاثية الأبعاد...

صورة لكائن عجيب...

كائن، اتسعت لمرآه عينا (شريف)، فى رعب هائل...

فذلك الكائن، الذى لم يره فى حياته قط، كانت له هيئة رهيبة مخيفة...

هيئة مرعبة...

بلا حدود...

***

"(تارديجرادا) (Tardigrada)... كائن ميكروسكوبى، يعرف باسم (بطيئات المشية) أو (دب الماء)، وهو كائن يسير ولا يزحف... له ثمانية أرجل، لكل منها أطراف هدبية[1].... .."

قالها الجنرال (دوايت)، وهو يصف ذلك الكائن المخيف، الذى ظهرت صورته على شاشة الكمبيوتر الكبيرة، فى القاعة التى ضمت باقى الكبار، فغمغم صاحب الصوت الخشن فى عصبية:

- وكيف يمكن دمج جينات هذا البشع بجينات البشر ؟!

أجابه الجنرال (دوايت)، من موقعه فى المبنى الدائرى، فى صحراء (مطر):

---

(1) تارديجرادا: أو (هيبيبوس ديجاردينى)، كائن معجزه ثمانى الأرجل، له خاصية مدهشة، تجعله يحتمل أقسى الظروف المعيشية، مثل غياب الماء والهواء، ودرجات الحرارة شديدة الارتفاع والانخفاض.

- هذا الكائن، الذى تصفه بالبشاعة، هو أقوى كائن معروف على وجه الأرض، على الرغم من ميكروسكوبيته، وعلى الرغم من أنه موجود حولك فى كل مكان تقريباً، دون أن تراه أو تشعر به.. إنه الكائن الوحيد، على وجه الأرض، الذى يعتقد العلماء أنه كان موجوداً منذ بدء الخليقة، دون أن تتغيَّر أى من سماته الأساسية، ويعتقد البعض الآخر أنه جاء إلى الأرض، على متن بعض النيازك، التى سقطت عليها من الفضاء الخارجى، خاصة وأنه كائن شبه خالد، يستطيع احتمال نقص الماء لسنوات، ويحيا فى غياب الأكسجين، وفى حرارة تبلغ الصفر المطلق هبوطاً، أو مائة وواحد وخمسين درجة مئوية ارتفاعاً، واستطاع العيش فى الفضاء، فى غياب الهواء والضغط والحرارة لسنوات، كما أنه يحتمل الإشعاعات النووية، إذا ما بلغت ألف ضعف ما يكفى، لقتل إنسان بالغ[1].

بدا الكل مبهوتين لما يسمعونه، وغمغم صاحب الصوت الخشن، بعد وهلة من الصمت التام:

- هذا يعنى أنه، عند إضافة جينات ذلك الكائن البشع، إلى جينات كائن بشرى، سنحصل على...

لم يستطع إتمام عبارته، فقال الجنرال (دوايت) فى حزم:

- سوبرمان حقيقى... نعم يا رجل... كائن بشرى، تضيف إليه جينات (التارديجرادا)، سيصبح سوبرماناً فعلياً، مقارنة بباقى البشر من حوله.

قال آخر، والانبهار لم يفارقه بعد:

- لهذا استطاع ذلك الكائن السير على القمر، متجاهلاً نقص الهواء، وضعف الضغط والجاذبية !!

أومأ الجنرال (دوايت) برأسه إيجاباً، وقال:

- وربما هذه أقل قدراته.

هتف صاحب الصوت الخشن فى عصبية:

---

(1) حقيقة علمية.

– مازال سؤالى كما هو... كيف يمكن دمج جينات كائن بشع، مع جينات بشرية، أيا كانت قدرات ذلك البشع ؟!

أجابه (دوايت):

– هذا مستحيل علمياً !

ثم استدرك فى سرعة:

– بالنسبة للعلوم المعروفة فى عالمنا.

تبادل الرجال نظرة شديدة التوتر، ثم قال أحدهم بأنفاس مبهورة:

– هذا يعيدنا إلى نظرية اللقاء من النوع الثالث، مع كائنات من عالم آخر[1]..

ران على المكان صمت تام ثقيل، فور أن انتهى الرجل من عبارته، وتعلقت عيون الكل بالشاشة الكبيرة، التى تنقل صورة الجنرال (دوايت) من (مصر)، فى انتظار جوابه ...

وللحظات بدت أشبه بدهر كامل، صمت الجنرال (دوايت)، ثم لم يلبث أن اعتدل على مقعده، وقال:

– الواقع أنه، وبعد دراسة عميقة وطويلة، توصل علماؤنا إلى نظرية جديدة... ومدهشة.

وما أن بدأ يشرح النظرية، حتى اتسعت العيون عن آخرها.

فالمفاجآت والصدمات لم تنته بعد...

بل تزداد ارتفاعاً...

على نحو مخيف..

للغاية.

***

(1) لقاء من النوع الثالث: لقاء مباشر بين البشر وكائنات الفضاء.

الفصل الحادى عشر

"مازلت تبدو مصدوماً... " ...

نطقها أحد أصحاب الوجوه المستديرة، فى تعاطف مشفق، وبتلك اللغة، التى لا يعرفها عالمنا، والتى يفهمها (شريف) لسبب ما، فالتفت (شريف) إلى قائلها فى بطء، وغمغم فى مرارة:

– لو كنت فى موضعى، أكان سيسعدك أن تعلم أن جيناتك قد امتزجت بجينات وحش كهذا.

تطلع إليه صاحب الوجه المستدير لحظات فى إشفاق، ثم جلس إلى جواره، قائلاً فى تعاطف:

– مصطلح الوحش هذا فيه مبالغة كبيرة؛ فالكائن الذى حميناك بزوج من مؤرثاته، مجرَّد كائن ميكروسكوبى، ونحن لم ننقل لك ما يتعلَّق بهيئته أو تكوينه... لقد اكتسبت فحسب مقدرته المذهلة، على مقاومة كل عوامل الطقس من حوله.

قال (شريف) فى مرارة، حملت لمحة من الحدة:

– أتريد أن تقول: إنكم قد فعلتم هذا لصالحى؟!

هتف فى سرعة:

– بالتأكيد.

وصمت لحظة، قبل أن يستدرك:

– وستكتشف هذا بنفسك.

قال (شريف) فى دهشة متوترة:

– ماذا تعنى ؟!

صمت صاحب الوجه المستدير طويلاً هذه المرة، قبل أن يجيب فى بطء:

– أترك هذا للزمن.

لم يرق هذا الجواب لـ(شريف)، فمطَّ شفتيه، وأشاح بوجهه في امتعاض، مما جعل صاحب الوجه المستدير يمس كتفه في رفق، وهو يغمغم:

- كيف يمكننا إقناعك بأننا لا نريد بك شراً.

التفت إليه (شريف) في حدة:

- من منظور من ؟!

تراجع صاحب الوجه المستدير مصدوماً، ثم قال في ارتباك:

- هذه واحدة من أعظم لحظات التاريخ، وأنت تقاومها في عنف، على الرغم من أنك تؤدي أعظم خدمة للكون.

صاح فيه (شريف) في غضب:

- لماذا يستخدم كل منكم صيغ المبالغة الزائدة هذه، كلما وصف موقفي ؟!... لماذا لا نواجه الواقع... أنا مجرَّد مهندس معلومات، سقط فريسة صراع بين عالمين، دون ذنب جناه.

مرة أخرى، تراجع صاحب الوجه المستدير مصعوقاً، قبل أن يقول في توتر ملحوظ:

- ولكنك بالفعل سفير غير عادي، بين حضارتين عظيمتين.

صاح (شريف):

- ودون أن أفهم حتى لماذا أنا كذلك !!

صمت صاحب الوجه المستدير طويلاً مرة أخرى، قبل أن يتمتم في ارتباك:

- الواقع أن الأمر شديد التعقيد، حتى أننا مازلنا نجهل ما هي الوسيلة المثلى؛ لنشرحه لك.

قال في عصبية:

- يمكنكم أن تفترضوا بي الذكاء.

غمغم:

- نحن واثقون من هذا، ولكن...

قاطعه في عصبية أكثر:

- ولكن ماذا ؟!

عاد صاحب الوجه المستدير إلى صمته، بعد أن أطلق تنهيدة طويلة، وبدت على وجهه المستدير علامات تفكير عميق، قبل أن ينتزع نفسه من صمته، ويسأل (شريف):

- هل سمعت عما يسمى بالمسار الثعبانى ؟!

بدت الدهشة على وجه (شريف)، وهو يقول:

- مسار ثعبانى ؟!

استخدم صاحب الوجه المستدير ذراعيه، على نحو مبالغ، وهو يقول:

- إنها مسارات كونية، تسمح لمن يعبرها بالخروج فى زمن آخر، أو...

قاطعه (شريف) فى توتر:

- آه... هذا ما نطلق عليه لدينا اسم (الثقب الدودى)[1]

التقط صاحب الوجه المستدير نفساً عميقاً، وغمغم:

- الاسمان متشابهان، ولكن المبدأ العلمى واحد.

سأله (شريف) بنفاد صبر:

- ماذا عنها ؟!

عاد صاحب الوجه المستدير يستخدم ذراعيه، وهو يقول:

- كانت تلك المسارات الثعبانية، أو الثقوب الدودية، مجرد فرضيات، حتى أمكننا رصدها، عام ستة آلاف وسبعة.

توقف (شريف) عند هذه النقطة، وهو يهتف:

- ستة آلاف وسبعة ؟!

مسّ صاحب الوجه المستدير كتفه مرة أخرى فى رفق، وهو يقول:

---

(1) الثقوب الدودية: هى فى حقيقتها ممرات دودية تخيلية، موجودة داخل الثقوب السوداء، وهى - حتى الآن - مجُرد ثقوب أثبتت المعادلات الرياضية وجودها فحسب؛ نظراً لأن صعوبة الكشف عما يحويه الثقب الأسود، منعت رصدها، حتى لحظة كتابة هذه السطور.

- تاريخنا يختلف.

مطّ (شريف) شفتيه، دون أى تعليق، فتابع صاحب الوجه المستدير، معاوداً حركة ذراعيه:

- ومع تطوّر رحلاتنا الفضائية الاستكشافية، استطعنا سبر أغوار المسارات الثعبانية، وعمل خريطة دقيقة لها، تساعدنا على الانتقال إلى...

قاطعه (شريف) فى عصبية:

- عوالم أخرى... أليس كذلك ؟!

تطّلع إليه صاحب الوجه المستدير فى دهشة، فتابع فى عصبية:

- السؤال الآن هو: هل باستطاعة علومكم، فى قرنكم الستين، إيجاد وسيلة لإعادتي إلى عالمى... لا أريد أن أموت خارج الأرض.

ازدرد صاحب الوجه المستدير لعابه فى صوت مسموع، ثم أشار بيده، قائلاً فى توتر:

- نحن فى قرننا الحادى والستين وليس الستين، والمشكلة أنك لن تستطيع استيعاب هذا فى يسر، كما عجزنا نحن عن استيعابه فى البداية.

صاح (شريف) فى حدة:

- لست أريد استيعاب شئ... أريد العودة إلى الأرض... هل تفهم... إلى كوكبى الأرض.

ازدرد صاحب الوجه المستدير لعابه مرة أخرى، قبل أن يقول فى ارتباك شديد:

- هذا بالضبط ما خشينا أن يصعب عليك استيعابه.

ثم مال نحوه، مستطرداً بكل توتره:

- إنك لم تغادر كوكب الأرض قط.

واتسعت عينا (شريف) عن آخرهما...

ولم يصدّق ما تسمعه أذناه...

لم يصدقه أبداً...

***

ازدرد صاحب الصوت الخشن لعابه، فى صعوبة كبيرة، وهو يجلس فى قاعة الاجتماعات العلوية فى (ناسا)، يستمع إلى الجنرال (دوايت)، الذى يملأ وجهه الشاشة الكبيرة، وهو يقول:

- عالم مواز... كون آخر... هذه هى النظرية، التى توَّصل إليها العلماء... كون يماثل كوننا تماماً، ولكنه يتقدَّم علينا بعدة سنوات، فى سلم التطوُّر...

غمغم أحد الحاضرين فى توتر:

- أهذه نظرية علمية ؟!

أجابه الجنرال (دوايت):

- هناك مشاهدات علمية ومعملية، تثبت وجود عدة أكوان متوازية، تشترك معنا فى نفس المساحة من الفضاء، ولكن لكل منها تردُّد يختلف عن الآخر[1]

تلفَّت أحدهم حوله، على نحو غريزى متوتر، وهو يغمغم:

- أتعنى أن الأكوان الأخرى حولنا الآن ؟!

أشار الجنرال (دوايت) بيده، وهو يقول:

- ليس هذا فحسب، ولكن لكل منا مثيل، فى كل الأكوان حولنا، سواء أسميناها بالأكوان المتعددة (Multiverses)، أو الأكوان المتوازية (Parallel Universes)... فأنا مثلاً قد أكون جنرالاً فى كوننا، ولكنني عامل بناء فى كون آخر، ولص بنوك فى ثالث، وهكذا.

تبادل الكل نظرة متوترة، قبل أن يغمغم صاحب الصوت الخشن:

- أمر يصعب تصديقه.

قال الجنرال فى حزم:

- الراديو والمصباح الكهربى وصواريخ الفضاء، وحتى الهاتف المحمول، كانت كلها يوماً أموراً يصعب تصديقها.

غمغم أحدهم:

---

(1) حقيقة علمية.

- صدقت.

لوّح صاحب الصوت الخشن بيده معترضاً، ثم قال فى صرامة:

- أخبرنا بصلة هذا بما نحن بصدده.

أجابه الجنرال فى سرعة:

- الفجوة الحمراء، التى تم تسجيلها، هى فى واقعها فجوة بين عالمين متوازيين... محاولة من كون آخر لبلوغ كوننا.

هتف أحدهم:

- وكيف يمكن لكون آخر، يختلف عنا فى تردُّده، أن يبلغ عالمنا؟!

أجابه الجنرال:

- ربما لصعوبة هذا يظهرون لنا كأشباح حمراء، وليس كأجساد يمكن لمسها.

قال صاحب الصوت الخشن فى عصبية:

- فيما عدا زائر القمر.

قال الجنرال (دوايت) فى سرعة:

- أضف إليه اختفاء المهندس (شريف فؤاد).

هتف صاحب الصوت الخشن:

- بالضبط.

التقط الجنرال (دوايت) نفساً عميقاً، وتراجع فى مقعده، قبل أن يجيب:

- مازالت نظرية الصفر الكهرومغناطيسى سارية ... الآتون من الكون الموازى يمكنهم التجسّد، فقط فى مناطق تنخفض فيها الطاقة الكهرومغناطيسية إلى الحد الأدنى...

قاطعه ارتفاع رنين هاتف صاحب الصوت الخشن، والذى أسرع يلتقطه، ويضغط زر الاتصال، هاتفاً:

- ما الجديد.

حبس الجميع أنفاسهم، حتى الجنرال (دوايت) نفسه، وهم يتطلعون إلى وجه صاحب الصوت الخشن، والذى امتقع فى شدة، وهو يستمع إلى محدثه بقوله:

- أرسل الفيلم على الفور.

هتف به الجنرال (دوايت)، فور إنهاء المحادثة:

- ما الجديد ؟!

كان وجه صاحب الصوت الخشن شاحباً، وهو يجيب:

- لقد استعادوا الاتصال مع (سى-١٧).

هتف الكل فى آن واحد:

- حقاً ؟!

وتساءل الجنرال (دوايت) فى توتر واهتمام:

- هذا ليس سبب شحوب وجهك... ما الجديد ؟!

ازدرد صاحب الصوت الخشن لعابه فى صعوبة، وهو يجيب:

- (سى-١٧) أرسل فيلماً، سجلته آلة التصوير فى خوذته، وهو يحوى أموراً مذهلة... للغاية.

واحتبس الهواء فى صدور الجميع، حتى كادوا يختنقون، من فرط التوتر والفضول...

والرعب أيضاً...

فكلمة مذهلة هذه، جعلت قلوبهم تخفق كألف ألف مضخة...

أو أشد...

***

للمرة العشرون، راجع البروفيسير (عمر) ذلك الفيلم القصير، للحظة اختفاء (شريف)، وجلس الكل من حوله صامتين مأخوذين، يراقبون الفيلم نفسه فى يأس محبط...

كان يبطئ سرعة العرض فى كل مرة، تساعده فى هذا الأجهزة المتطوِّرة القوية، التى زوَّده بها الأمريكيون...

ولكن حتى مع تقسيم الفيلم إلى لقطات منفصلة، لم يتغيَّر شئ...

أشباح حمراء، تخرج من الدائرة، وتسحب (شريف) داخلها...

ثم يختفى كل شئ...

"هذا لا يكفى.... " ...

نهض الدكتور (أكرم) من مقعده فى حركة حادة، وهو ينطق العبارة فى صرامة، فغمغم الدكتور (خالد):

- بالتأكيد... ولكن ماذا يمكننا أن نفعل ؟!

نهضت الدكتورة (أشلى) بدورها، وهى تقول:

- على الأقل ألا نجلس هنا ساكنين، نندب سوء حظنا فحسب.

تبعتها (إلهام) فى النهوض، وهى تقول فى حزم:

- دعينى أتفق معك هذه المرة.

أشار (أنور) بيده، قائلاً:

- وأنا أيضاً.

أدار البروفيسير (عمر) بصره فيهم جميعاً، وغمغم فى توتر:

- عظيم... ولكن سؤالى مازال كما هو: ماذا يمكننا أن نفعل ؟!

قال المقدَّم (مشهور)، الذى وقف فى الخلف صامتاً طوال الوقت:

- نعيد تمثيل الجريمة.

التفت إليه الكل فى دهشة، وغمغمت (أشلى) فى حيرة:

- أية جريمة ؟!

اعتدل فى حزم، وهو يقول:

- مجرّد مصطلح، اعتدنا استخدامه، إبان عملى السابق فى جهاز الشرطة... مصطلح يعنى إعادة الأحداث بنفس النسق والترتيب.

تألقت عينا الدكتور (أكرم)، وهو يهتف:

- أنت عبقرى يا سيادة المقدَّم.

غمغمت (إلهام) فى عصبية:

- هل فاتنى شئ لم أفهمه؟!

هتف الدكتور (أكرم) فى حماس:

- أفضل ما يمكن أن نفعله... سنعيد كل الخطوات مرة أخرى، كما حدث بالضبط، عندما اختفى المهندس (شريف).

بدت (أشلى) مبهوتة، وهى تغمغم:

- نقطة الصفر الكهرومغناطيسى ؟!

أجاب الدكتور (أكرم) بكل حماسه:

- وفى نفس الموقع، وتحت نفس الظروف.

انتقل حماسه إلى الجميع، فيما عدا البروفيسير (عمر)، الذى غمغم:

- من المستحيل إعادة نفس الظروف....

هتفت (إلهام) مستنكرة:

- ولماذا ؟!

أجاب فى توتر:

- هناك عامل هام جداً مفقود... المهندس (شريف) نفسه.

همَّ الدكتور (خالد) بقول شئ ما، عندما قال المقدَّم (مشهور) فى حزم:

- سنستعيض عنه بشخص آخر.

بدت الدهشة عليهم جميعاً، وغمغم الدكتور (خالد) فى حذر:

- مثل مَن ؟!

شدَّ المقدَّم (مشهور) قامته، وهو يجيب فى قوة وحزم:

- أنا.

وتفجَّرت دهشة الجميع أكثر...

وبدوى صامت هائل...

للغاية...

***

"من المستحيل أن أصدِّق هذا !!...."...

هتف (شريف) بالعبارة فى عناد، جعل صاحب الوجه المستدير يتطلَّع إليه لحظات فى صمت مشفق، قبل أن يغمغم:

- لم يكن من السهل علينا أن نصدِّقه أيضاً.

لوَّح (شريف) بذراعه فى حدة، هاتفاً فى عصبية:

- لا تحاول إقناعي بهذا.

صمت صاحب الوجه المستدير لحظة، ثم تمتم فى خفوت:

- لست أحاول شيئاً.

حدَّق (شريف) فى المشهد الذى يراه، عبر زجاج النافذة بالغ النقاء، وهو يكرِّر:

- لا تحاول...

كان من المستحيل عليه بالفعل، أن يؤمن أو يصدِّق أنه مازال على كوكب الأرض !!...

من المستحيل تماماً !!...

كل شئ من حوله يختلف تماماً عن كوكب الأرض...

ليس ما يحيط به من تكنولوجية متقدِّم فحسب...

ولكن المناخ نفسه...

السماء ليست سماء الأرض الزرقاء، التى يعرفها...

إنها سماء مشرَّبة بحمرة خفيفة، تجعلها أقرب لمزيج من سماء الأرض والمريخ معاً[1]...

حتى السحب، ليست بيضاء أو رمادية باهتة، كسحب الأرض...

وتلك الأبنية، التى تبدو من بعيد، تشف عن تقنية بناء عالية، ولكنها لا تشبه أى مبنى رآه على وجه الأرض...

بل والكائنات نفسها تختلف...

وجوهها المستديرة...

عيونها الواسعة...

أنفها الكبير...

وحتى ذلك الفم الصغير المستفز...

لا... هو حتماً ليس على كوكب الأرض...

"مستحيل !!... "...

هتف بالكلمة فى عناد شديد، فزفر صاحب المستدير، قبل أن يقول:

- ليس هذا ما اعتدته... أليس كذلك ؟!

قال فى إصرار:

- بلى... هذه ليست الأرض التى أعرفها.

صمت صاحب الوجه المستدير لحظة، ثم قال:

- أو ليس الزمن الذى تعرفه.

بهت (شريف) لقوله، فالتفت يحدِّق فى وجهه فى شدة، قبل أن يغمغم بحلق جاف:

- الزمن ؟!... هل تعنى ما أخشاه ؟!

أومأ صاحب الوجه المستدير برأسه، قائلاً:

- نعم... أنت لست فى الزمن الذى تعرفه واعتدته.

وامتقع وجه (شريف) فى شدة...

ليس فى زمنه !!..

---

(1) الغلاف الجوى للمريخ، بغازاته المختلفة، يمنح سماءه لوناً أحمر فحسب.

هل يعني ذلك الشئ ذلك بالفعل ؟!

هل انتقل بوسيلة ما عبر الزمن...

أفلام طالما أحبها...

بل وعشقها...

أفلام فجَّرت فى خياله عشرات التساؤلات والاحتمالات...

وربما حلم يوماً بأن يكون أحد المسافرين عبر الزمن...

ولكن أن يحدث هذا بالفعل، فهو أمر مستحيل !!

مستحيل تماماً...

"أنحن فى زمن آخر؟!..." ...

جف حلقه في شدة، وهو يلقى سؤاله هذا، فتطلع إليه صاحب الوجه المستدير، متسائلاً فى قلق:

- هل تشعر بالعطش ؟!

أومأ (شريف) برأسه إيجاباً، فلوَّح صاحب الوجه المستدير بيده فى الهواء، فانفتحت فجوة فى الجدار، التقط منها زجاجة معدنية، ذات تكوين أسطوانى منتظم، وناولها لـ(شريف)، الذى أمسك بها فى حذر متوتر، جعل صاحب الوجه المستدير يغمغم فى أسى:

- مازلت لا تثق بنا.

قال (شريف) فى عصبية:

- لست أثق حتى فى أننى مستيقظ.

خيِّل إليه أن صاحب الوجه المستدير يبتسم، ففتح الزجاجة، وارتشف رشفة منها فى حذر، ولكن الماء بدا له نقياً عذباً، فراح يروى عطشه منه بلا حذر، مما جعل صاحب الوجه المستدير يبتسم، فمسح (شريف) شفتيه، وهو يعيد إغلاق الزجاجة، قائلاً:

- الماء سر الحياة.

حاول شريف أن يبتسم، وهو يقول:

- لم أكن بحاجة إلى السفر لأربعين قرناً فى المستقبل، حتى أدرك حقيقة بسيطة كهذه.

بدت الدهشة فى الوجه المستدير، وفى نبرات صوت صاحبه، وهو يغمغم:

- هل تعتقد أنك سافرت إلى المستقبل ؟!

هزَّ (شريف) كتفيه، وأشار إلى ما حوله، قائلاً:

- أظن هذا يبدو واضحا.

صمت صاحب الوجه المستدير لحظة أخرى، ثم قال:

- كثيرة هى تلك الأمور، التى توحى بقمة الوضوح، وهى فى واقعها ذروة الغموض.

قال (شريف) فى حذر:

- أهذا لغز آخر ؟!

هزَّ صاحب الوجه المستدير رأسه نفياً وقال:

- ماذا إذن لو أخبرتك، أنك لست فى مستقبل كوكب الأرض.

بهت (شريف)، وهو يغمغم:

- أين أنا إذن ؟!

وفى هذه المرة، طال صمت صاحب الوجه المستدير...

طال كثيراً...

وربما أكثر مما ينبغى...

ومع صمته اشتعل فضول (شريف) والتهبت أعصابه، فهتف بكل توتره:

- أين أنا ؟!

مال صاحب الوجه المستدير نحوه، وأجاب...

وهبط الجواب على (شريف) كصاعقة...

قاتلة.

***

الفصل الثانى عشر

"مذهل بحق..." ..

اتسعت عيون قادة (ناسا)، فى قاعة اجتماعاتهم الكبيرة، واتسعت معها عينا الجنرال (دوايت)، وهو يجلس فى مكتبه، فى المبنى الدائرى، فى قلب صحراء (مصر)، وكلهم يتابعون ذلك الفيلم المذهل، الذى أرسله (سى-١٧) من القمر.

للوهلة الأولى، تصوَّروا أنهم يشاهدون فيلماً عن كوكب آخر...

السماء الزرقاء المشرَّبة بالحمرة...

السحب الرمادية، ذات الأطراف البرتقالية...

الصحراء الجبلية، المحيطة بمدينة كبيرة، لها طرز معمارية عجيبة، تختلف تماماً عن كل الطرز المعروفة على وجه الأرض...

والبراكين التى تبدو من بعيد، فى مؤخرة المشهد، والتى تحجبها كل حين وآخر، مركبات شبه مستديرة، تسبح فى الهواء، على نحو يؤكد وجود مخلوقات عاقلة تقودها...

كانت الأنفاس محتبسة، والقلوب تخفق فى قوة، والعيون تحمل كل انبهار الدنيا، والملامح تنقل توتراً ما بعده توتر، عندما همس صاحب الصوت الخشن بحلق مختنق:

- إنه أعظم حدث عرفه القرن.

غمغم الجنرال (دوايت)، عبر نظم الاتصال:

- أو أخطر حدث عرفه القرن.

انتزع أحد الحاضرين نفسه من توتره، قائلاً بصوت كالفحيح:

- إنهم لم يتركوا وسيلة للاتصال.

غمغم آخر:

- ولم يرونا وجوههم أيضاً.

حك الجنرال ذقنه، وهو يقول فى بطء حذر:

- ربما أعفونا من الصدمة.

هتف آخر بصوت مبحوح:

- هل تعتقد هذا ؟!

غمغم صاحب الصوت الخشن فى توتر:

- ربما يبدون كالشياطين مثلاً، أو ذوى بشرة خضراء، كما تقول أفلام الخيال القديمة.

لهث بعضهم فى انفعال، فى حين اعتدل الجنرال (دوايت) على مقعده، وقال مستعيداً حزمه:

- السؤال الآن هو: ما الذى يفترض علينا فعله، بعد أن تسلمنا الرسالة ؟!

قال أحد الرجال فى توتر:

- سؤال كان ينبغى أن نلقيه عليك يا جنرال.

وهتف صاحب الصوت الخشن فى عصبية، مبعثها اضطرابه:

- أنت الذى كوَّنت الفريق.

تراجع الجنرال فى مقعده، وهو يتمتم:

- آه... الفريق.

تساءل أحد الرجال فى قلق:

- هل ستخبرهم بأمر رسالة سكان الفضاء ؟!

صمت الجنرال لحظات، قبل أن يغمغم:

- فى الوقت المناسب.

وعلى الرغم من دهشة الكل، عادوا يتابعون ذلك الفيلم، الذى يستعرض صور الحياة الجامدة، دون رؤية مخلوق عاقل واحد، وتابعوا الكاميرا تدور حول أشجار عجيبة المنظر، و...

وفجأة، شهقوا جميعاً فى قوة...

فما نقلته الصورة، بعد الدوران حول تلك الأشجار العجيبة، كان بمثابة صدمة شديدة العنف، جعلت صاحب الصوت الخشن يهتف مختنقاً:

- مستحيل !؟

أما الباقون، فمن فرط ذهولهم وصدمتهم، لم ينبس أحدهم بحرف... حرف واحد..

***

راجع الدكتور (أكرم) مؤشرات أجهزته للمرة الأخيرة، قبل أن يرفع عينيه إلى طاقم الفنيين التابع له، ويتلقى منهم إشارة استعداد نهائى، ثم التفت إلى المقدَّم (مشهور)، قائلاً:

- نحن على أهبة الاستعداد.

رفع المقدَّم (مشهور) إبهامه، وهو يقول فى حزم، لم يخل من نبرة توتر، حاول عبثاً كتمانها:

- على بركة الله.

ازدرد البروفيسير (عمر) لعابه فى صعوبة، وراح يتأكَّد من عمل أجهزته؛ لتسجيل كل لحظة، فى حين شعرت (إلهام) بتوتر عنيف يكتنفها، وراح (أنور) يتلو بعض الآيات القرآنية، فى حين مالت الدكتورة (أشلى) على الدكتور (خالد)، هامسة:

- هل تعتقد أن هذا سيسفر عن شئ !؟

صمت لحظة، ثم غمغم:

- أتعشَّم هذا.

شعر بالاهتمام الجاد فى صوتها، وهى تسأله:

- ماذا يقول دينكم فى هذا !؟

تنهَّد، مجيباً:

- ألا نفقد الأمل فى الله سبحانه وتعالى أبداً.

سألته فى اهتمام أكبر:

- وهل يجدى هذا ؟!

ابتسم ابتسامة باهتة، وهو يجيب:

- دوماً.

تراجعت فى دهشة، وحدَّقت فيه لحظة، ثم هزَّت كتفيها، متمتمة:

- سنرى.

أشار الدكتور (أكرم) لفريقه، وبدأت عملية حصار الطاقة الكهرومغناطيسية، عند الدائرة المعدنية، تحت القبة الزجاجية الكبيرة...

واحتبست أنفاس المقدَّم (مشهور)، مع تلك الفرقعات الخفيفة، التى تضاعف إحساسه بها، مع التوتر العنيف، الذى سرى فى جسده...

وعلى شاشة جهاز الدكتور (أكرم)، راحت الطاقة الكهرومغناطيسية، عند منتصف الدائرة المعدنية تنخفض...

وتنخفض...

وتنخفض...

ومع انخفاضها تلاحقت أنفاس الدكتور (أكرم)، وخاصة مع اقتراب المؤشرات من الصفر، وراح هو يتابعها، بكل توتره، قبل أن يرفع يده، هاتفاً بكل انفعاله:

- الآن...

ومع هتافه دوت فرقعة قوية فى المكان، مع بلوغ منسوب الطاقة الكهرومغناطيسية، عند مركز الدائرة المعدنية درجة الصفر...

وانتفض البروفيسير (عمر)، لما يراه على شاشته...

وانحبست أنفاس الجميع، مع الفجوة الحمراء، التى تكوَّنت وسط الدائرة، ثم خفقت قلوبهم بمنتهى العنف...

فمع الفرقعة، وبدلاً من أن يختفى جسد المقدَّم مشهور، كما توقَّع الكل، عبر

جسم ما تلك الدائرة الحمراء إلى الخارج...

وفى هذه المرة لم يكن ظلاً داكناً...

أو حتى باهتاً...

لقد كان جسداً بشرياً واضحاً...

ومألوفاً...

جسد بشرى، عبر تلك الفجوة الحمراء فى هدوء، واستقر ثابتاً بقدميه على الدائرة المعدنية إلى جوار المقدّم مشهور، الذى بدا ذاهلاً مأخوذاً...

واتسعت كل العيون فى ذهول مماثل...

وخفقت كل القلوب فى انبهار...

وبكل ما يعتمل فى كيانها، هتفت (إلهام):

- (شريف)...

فقد كان ذلك الجسد، الذى عبر الفجوة الحمراء، فى هدوء وثقة هو (شريف)...

المهندس (شريف فؤاد)...

شخصياً...

***

لم يستطع رئيس الجمهورية المصرى كبح ذلك التوتر الشديد، الذى سرى فى كيانه كله، وهو يشاهد ذلك الفيلم العجيب، الذى يكاد يفوق كل خيال...

وطوال فترة العرض، لم ينبس الرئيس ببنت شفة، حتى جاء ذلك المشهد، والصورة تدور حول الأشجار العجيبة، ثم تنتقل صورة تلك الكائنات الضخمة، التى تتجوَّل فيما بدا أشبه بغابة بدائية قديمة...

مع رؤية تلك الكائنات الضخمة، قفز الرئيس من مقعده، هاتفاً:

- ديناصورات !؟

بدا مدير المخابرات، الجالس إلى جواره، مندهشاً فى شدة، وهو يحدِّق فى

المشهد متسع العينين، قبل أن يغمغم ذاهلاً:

- إنها كذلك بالفعل.

هتف الرئيس فى انفعال:

- أأنت واثق من أن هذا هو نفس الفيلم، الذى أرسله رائد الفضاء الأمريكى من القمر ؟!

أجابه مدير مخابراته، غير قادر على كتمان مشاعره:

- الأمريكيون يتصوَّرون أنهم يستخدمون اتصالات مؤمنة، ولكن كل شئ فى الموقع ألف وواحد يتم تسجيله وحفظه، وهذا هو ما نقلوه إلى الجنرال (دوايت) بالضبط.

عاد الرئيس يتابع المشاهد على الشاشة فى انبهار، قبل أن يقول:

- المفترض أننا نشاهد فيلماً عن حضارة أخرى عاقلة فى الكون، ولكن أن نرى لديهم ديناصورات، انقرضت فى عالمنا منذ ملايين السنين، فهذا أمر مذهل.

كان مدير مخابراته يشاركه ذهوله هذا، إلا أنه سيطر على مشاعره، وهو يقول:

- ربما نعود وهم إلى أصول واحدة.

هزَّ الرئيس رأسه، وهو يغمغم:

- أو ربما هناك تفسير آخر.

حرَّك مدير المخابرات كتفيه، دون أن يجيب، فأضاف الرئيس:

- وربما يستطيع المهندس العائد تفسير ما غمض علينا.

تنحنح مدير المخابرات، وقال:

- هذا محتمل جداً، خاصة وأنه قد عاد فى قمة النشاط والحيوية، على عكس ما ذهب... الأهم أنه عاد فى قمة التماسك والهدوء، على الرغم من التجربة العجيبة التى عاشها.

سأله رئيس الجمهورية فى اهتمام:

- ولماذا لم يتم استجوابه على الفور ؟!

شدَّ مدير المخابرات قامته، مجيباً فى حزم:

- هذا يتم الآن يا سيادة الرئيس.

سأله الرئيس:

- من يستجوبه بالضبط ؟!

أجابه مدير المخابرات:

- نحن والأمريكيون يا سيادة الرئيس.

هزَّ الرئيس رأسه، وهو يكرِّر مفكراً:

- نحن والأمريكيون.

ثم التفت إلى مدير المخابرات، مردفاً:

- احرص على ألا ينفرد الأمريكيون بالحصول على أية معلومات منه، مهما فعلوا أو حاولوا.

شدَّ الرجل قامته أكثر، وهو يجيب فى حزم:

- اطمئن يا سيادة الرئيس... رجلنا لن يسمح بهذا... أبداً.

اكتفى الرئيس بهذا القول، ولكنه عاد يفكِّر فى عمق، فى الكلمة التى أنهى بها مدير المخابرات عبارته الحازمة...

كلمة أبداً...

***

"كيف كان الأمر بالضبط ؟!..." ...

ألقى الجنرال (دوايت) سؤاله فى توتر، على المهندس (شريف)، الذى تطلَّع إليه فى هدوء، قائلاً:

- لم أشعر بشئ فى رحلة الذهاب... كنت فاقد الوعى تقريباً..

سأله المقدَّم (مشهور):

- وماذا عن رحلة العودة ؟!

صمت لحظة، ثم أجاب فى هدوء:

- أمكننى احتمالها.

بدا الجنرال (دوايت) عصبياً، وهو يقول:

- لم يمكنك احتمالها فحسب... لقد عبرت بكل الهدوء والثقة، وكأنك تعبر باباً مفتوحاً.

هزَّ (شريف) كتفيه، وابتسم ابتسامة باهتة، وهو يغمغم:

- هل فعلت حقاً ؟!

احتقن وجه الجنرال (دوايت) فى غضب، فى حين مال المقدَّم (مشهور) على (شريف)، يسأله فى هدوء، لم يخل من الفضول:

- ماذا رأيت هناك يا (شريف) ؟!

التفت إليه (شريف) فى بطء، وبدا من نظراته أنه، وعلى الرغم من النظر إليه مباشرة، لا يراه على الإطلاق...

هذا لأن ذهنه انطلق إلى هناك...

إلى أرض أصحاب الوجوه المستديرة...

"تطلقون على تلك المسوخ اسم ديناصورات !!..."...

قالها صاحب الوجه المستدير فى دهشة، فغمغم (شريف) فى انبهار:

- هذا ما نطلقه عليها بالفعل، ولقد شاهدت العديد منها، فى أفلام السينما ثلاثية الأبعاد، إلا أنها المرة الأولى، التى أرى واحدة حقيقية منها.

ثم التفت إلى صاحب الوجه المستدير، متسائلاً:

- ولكن لماذا تعتبرونها مسوخاً ؟!

أجابه صاحب الوجه المستدير فى بساطة:

- لأنها كذلك بالفعل... لقد كانت مجرَّد زواحف عادية، حتى كانت آخر الحروب فى حضارتنا، منذ ثلاثمائة سنة تقريباً... أيامها كان للإشعاعات المستخدمة تأثيراً مدمراً، على الكثير من الكائنات، فخرج إلينا جيل مشوه

من الزواحف والنباتات، وكلها لم تستطع التكيف مع ظروف الحياة، فبادت وانتهت.

غمغم (شريف):

– فيما عدا الديناصورات.

لح ما يشبه الابتسامة، على الفم الدقيق، وصاحبه يقول:

– هذا لأن التشوه الذى أصابها كان محدوداً... لقد أتلف الموروث المسئول عن الحد من النمو... كل مخلوقات الكون لديها موروث خاص بإيقاف نموها، عند حجم بعينه[1]، ولكن التأثير الإشعاعى قضى على ذلك الموروث، عند فئة من الزواحف، فلم يعد هناك ما يحد من نموها، مما جعلها تنمو وتتعملق بلا حدود، فصارت ما تطلقون عليه فى عالمكم اسم الديناصورات.

حدَّق (شريف) فى الديناصورات أمامه فى دهشة، ثم غمغم وهو يهز رأسه:

– لم يتصوَّر أحد علمائنا قط، أنه هكذا نشأت الديناصورات.

مرة أخرى بدا شبح ابتسامة، على فم صاحب الوجه المستدير، وهو يقول:

– على الرغم من أنكم شديدو الاهتمام بها.

قال (شريف):

– هذا طبيعى، لأنها كائنات انقرضت.

قال صاحب الوجه المستدير فى هدوء:

– كان من الطبيعى أن تنقرض؛ لأن نموها البالغ جعلها بطيئة الحركة، عاجزة عن بذل الكثير من الجهد، ولهذا فقد قضت عليها الكائنات الأصغر حجماً، والأكثر شراسة.

"لم تجب سؤالى بعد.... ..."

قالها المقدَّم (مشهور)، فى لهجة حاول أن يودعها أقصى قدر من الهدوء والمودَّة، فتطلع إليه (شريف) بنظرة خاوية، وهو يجيب:

---

(1) حقيقة علمية طبية.

- رأيت الديناصورات.

هتف الجنرال (دوايت) فى عصبية:

- نحن رأيناها أيضاً، فى الفيلم الذى أرسله (سى-١٧) من القمر... السؤال هو: هل تنمو الديناصورات فى عالمهم، وقاموا بنقلها إلى أرضنا، فى الأزمنة الغابرة.

التفت إليه (شريف) فى هدوء، قائلاً:

- الزمن كلمة لم تحصل على تعريف واضح بعد يا جنرال.

صاح فيه الجنرال فى حدة:

- كفى مراوغة يا مستر (فؤاد)... أريد إجابات واضحة صريحة.

تطلع إليه (شريف) بضع لحظات، فى صمت هادئ، قبل أن يقول:

- هل تعتقد أنك قادر على احتمالها يا جنرال.

اندهش (مشهور) للعبارة، فى حين قال (دوايت) فى حدة:

- ليس هذا من شأنك... أخبرنا ما لديك فحسب.

حملت عينا (شريف) نظرة متحدية، وهو يقول:

- الديناصورات لم تأت من عالمهم يا جنرال.... ما رأيته هو ديناصورات عالمنا.

انعقد حاجبا المقدَّم (مشهور) فى شدة، فى حين قال الجنرال فى غضب شديد التوتر:

- هراء... اي طفل يعلم أن الديناصورات سادت الأرض، منذ ملايين السنين، وقبل ظهور الإنسان على سطحها، ولكن ما رأيناه هو حضارة متطوِّرة، وديناصورات تتواجد معها فى الحقبة نفسها.

غمغم (شريف):

- هذا صحيح.

مال الجنرال (دوايت) نحوه، فى حركة حادة، توقَّع أن يرتد (شريف) معها إلى الخلف متوترا، إلا أن هذا الأخير ظل هادئا متماسكا، على الرغم من

صراخ الجنرال فى وجهه:

- هل ستفصح عما لديك، أم...

قاطعه (شريف) بكل الصرامة:

- أم ماذا يا جنرال ؟!

انعقد حاجبا الجنرال (دوايت) فى شدة، واعتدل بنفس الحدة التى انحنى بها، وهو يقول:

- هل تتحدى الإدارة الأمريكية يا مستر (فؤاد) ؟!

تضاعفت نظرة التحدى فى عينى (شريف)، فى حين قال المقدَّم (مشهور) فى صرامة:

- يبدو أنك أنت من يتحدَّى السيادة المصرية يا جنرال.

صاح الجنرال:

- نحن أمام حدث عالمى تاريخى أيها المقدَّم.

صاح فيه (مشهور):

- هذا لا ينفى أنك مازلت على أرض مصرية يا جنرال.

شدَّ الجنرال (دوايت) قامته، وانعقد حاجباه فى شدة، وهو يقول، فى مزيج من الغضب والصرامة والتوتر:

- ما تفعله له عواقب وخيمة أيها المقدَّم.

شدَّ المقدم (مشهور) قامته بدوره، وهو يقول:

- وأنا مستعد لتحملها كلها يا جنرال.

صمت الجنرال (دوايت) بضع لحظات، ثم عقد كفيه خلف ظهره، وهو يقول فى حزم، موجهاً كلماته إلى (شريف):

- المفترض أنك مواطن أمريكى يا مستر (فؤاد)، تحلم بالاستقرار فى ولاية جميلة، مع زوجتك الفاتنة (درو).

ضغط حروف عبارته الأخيرة، وكأنه يرسل رسالة تهديد خفية لـ(شريف)، الذى ارتسم الغضب على وجهه، وهو يقول:

- لو مس أحدكم شعرة من رأس (درو)، فسوف...

قاطعه الجنرال فى صرامة قاسية:

- فسوف ماذا يا مستر (فؤاد) ؟!... هل ستنشئ تنظيماً إرهابياً، يقاتل جيش الولايات المتحدة الأمريكية ؟!

نهض (شريف) يواجهه، وهو يقول فى تحد غاضب:

- ربما أفعل.

أمسك (مشهور) كتف (شريف)، وهو يقول فى حزم:

- لا داع للتمادى يا (شريف)... الأمر حقاً لا يستحق هذا.

التفت إليه (شريف) فى حدة:

- هل تعتقد هذا ؟!

ربت (مشهور) على كتفه، قائلاً:

- اهدأ يا (شريف)... اهدأ.

صاح (شريف):

- أهدأ ؟!... هذا الحقير يهددنى بزوجتى، وكأنه زعيم عصابة، وليس جنرالاً فى الجيش الأمريكى، ولكنه يجهل ما يمكننى فعله، بعدما اكتسبت ما اكتسبته.

غمغم المقدَّم (مشهور) فى دهشة:

- ما الذى اكتسبته ؟!

أما الجنرال (دوايت)، فقد أمسك ذراعه فى قوة، وهو يهتف به:

- وما الذى اكتسبته يا مستر (فؤاد) ؟!... ماذا فزت به من رحلتك هذه؟!

التفت إليه (شريف) فى حدة:

- أكثر مما تتصوَّر يا جنرال.

هتف الجنرال بكل اللهفة:

- مثل ماذا ؟!

اعتدل (شريف) فى تحد، قائلاً:

- فى التاسع من يوليو، وبالقرب من منطقة بحر العواصف، على سطح القمر، التقى رائد الفضاء (سى-١٧) بشخص لا يرتدى أى زى فضائى، وذلك الشخص أعطاه خطاباً، وقطعة من بشرته، والخطاب كان يحوى خريطة لنقطة اتصال متطوِّرة، تحت سطح القمر، وفيها شاهد (سى-١٧) فيلماً عن عالم عجيب، تتجوَّل فيه الديناصورات، وسط حضارة متقدِّمة، تحت سماء زرقاء مشربة بالحمرة.

ازداد انعقاد حاجبى المقدَّم (مشهور)، وهو يغمغم:

- يا إلهى !!

أما الجنرال (دوايت) فقد ارتد كالمصعوق، وهو يهتف:

- مستحيل !... كيف عرفت كل هذه التفاصيل بمنتهى الدقة ؟!... إننا لم نخبر بها أحداً تقريباً.

مال (شريف) نحوه، وأجاب فى تحد كبير:

- ذلك الذى التقى به (سى-١٧)، على سطح القمر، لم يكن مخلوقاً فضائياً من عالم آخر يا جنرال.

ثم مال أكثر، وتضاعفت نبرة التحدى فى كلماته، وهو يضيف:

- لقد كان أنا.

وانتفض جسد الجنرال (دوايت) بمنتهى العنف...

فهذا كان يفوق أسوأ كوابيسه...

بمائة ألف ضعف...

على الأقل.

***

الفصل الأخير

"لا...لا يمكننى فعل هذا... ..."

هتف (شريف) بالعبارة فى ذعر، فمَّس صاحب الوجه المستدير كتفه، كعادته كلما حاول تهدئته، وهو يقول:

– ولكنك وحدك قادر على هذا.

هتف فى عصبية:

– لماذا يكرِّر الكل هذا، هنا وفى عالمى ؟!

مسَّ صاحب الوجه المستدير كتفه مرة أخرى فى رفق، وقال:

– عندما كشفنا المسارات الثعبانية لأوَّل مرة، صدمنا أننا لا نستطيع الانتقال إلى زمن آخر كمشاركين، وإنما فقط كمشاهدين... وأوَّل محاولاتنا نقلتنا إلى مرحلة غير متطوِّرة، مما أعجزنا عن التواصل معهم، وإيصال رسائلنا إليهم... كنا بالنسبة لهم مجرَّد أطياف حمراء داكنة، ليس لها ملامح أو صوت... ثم طوَّرنا أساليبنا، وكرَّرنا محاولاتنا أكثر من مرة، وكنا نتطوَّر بالفعل، ولكن تطوَّرنا أسفر فقط عن ظهورنا فى وضوح، بدلاً من ظهورنا فى أطوال موجية لا تلتقطها العيون البشرية... ولكن مع كشفنا لمسارات ثعبانية جديدة، أمكننا العبور إلى مرحلة متطوِّرة فى زمنك، ولكننا مازلنا عاجزين عن التواصل بشكل واضح.

سأله (شريف) فى عصبية:

– وهل تتصوَّرون أن أنجح أنا فى هذا ؟!

أجابه صاحب الوجه المستدير فى حسم:

– بكل تأكيد ... وصولك إلى هنا كان معجزة علمية، لم يتصوَّر علماؤنا حدوثها... طفرة زمنية، أدهشتنا بأكثر مما أدهشتك . . . ولكنها فتحت أمامنا مجالاً فريداً للتواصل مع زمنك.

تساءل (شريف) مرة أخرى:

- ولماذا تفترضون أن أنجح أنا ؟!

مال صاحب الوجه المستدير نحوه، مجيباً:

- أنت تنتمى إلى الزمن، الذى ستذهب إليه، ولهذا سيكون تحسدك فيه طبيعياً.

تردَّد (شريف)، وهو يغمغم فى حذر:

- لكى أوصل رسالتكم إلى زمنى ؟!

هتف صاحب الوجه المستدير:

- بالضبط.

لاحظ توتر (شريف)، فعاد يمس كتفه، مضيفاً:

- وما أكسبناك إياه، بإضافة موروثات دب الماء إلى مورثاتك، سيجعلك قادرا على التعايش فى كفاءة، إلى حيث سنرسلك فى المرة الأولى.

تراجع (شريف) مصدوماً، وهو يقول:

- فى المرة الأولى ؟!... ماذا تخططون لى بالضبط ؟!

أجابه صاحب الوجه المستدير فى هدوء:

- ستصبح أوَّل سفير بين حضارتين.

هتف معترضاً ومستنكراً:

- ومن أدراك أننى سأقبل هذا المنصب ؟!

مال صاحب الوجه المستدير عليه، قائلاً:

- ألا تريد أن تعلم إلى أين ستنتقل، فى المرة الأولى ؟!

حمل صوت (شريف) كل توتره، وهو يتساءل فى حذر:

- أين ؟!

أشار صاحب الوجه المستدير إلى أعلى، مجيباً:

- القمر.

واتسعت عينا (شريف) عن آخرهما فى رعب، و...

"لماذا القمر؟!... "...

ألقى المقدَّم (مشهور) السؤال، فى اهتمام كبير، شاركه فيه الجنرال (دوايت) بنظرة متوترة، فأدار (شريف) عينيه إليه متسائلاً، فتابع بنفس الاهتمام:

– ما دمت قادراً على التجسُّد فى زمننا، كما فعلت اليوم، فلماذا وقع اختيارهم على القمر؟!

ابتسم (شريف) ابتسامة هادئة، وهو يجيب:

– كانت وسيلة تحفيزية للغاية... ألا تتفق معى فى هذا ؟!... أقصد معهم.

أدار المقدَّم (مشهور) عينيه إلى الجنرال (دوايت)، الذى قال فى صرامة متوترة:

– كانت وسيلة ناجحة للغاية... وسيلة جعلتنا نصنع كل هذا.. والأهم أنها جعلت اختيارنا يقع عليك.

عاد (شريف) يبتسم تلك الابتسامة الهادئة، وهو يقول:

– السفر عبر الزمن له تداعيات، يعجز العقل العادى عن استيعابها أو إدراكها

نقل المقدَّم (مسهور) بصره بينهما، قبل أن يقول:

– هذا صحيح... ظهورك على القمر، وترك عينة جيناتك المحسَّنة، جعل قادة (ناسا) يضمّونك إلى الفريق، وهذا ما تسبَّب فى سفرك عبر الزمن، حتى أن العقل يحار، فى البحث عن بداية كل هذا، والمسار الصحيح للأحداث.

ابسم (شريف) دون أن يجب، فى حين قال الجنرال (دوايت) فى عصبية:

– وما معنى الرسالة ؟!... (كنا هنا قبلكم) !!.... كيف يمكن أن يصل المستقبل إلى القمر قبلنا.

اعتدل (شريف) فى اهتمام شديد، وهو يقول:

– هذه هى قمة الارتباك الزمنى... السفر عبر الزمن أرسلنى إلى ما رأيتموه فى ذلك الفيلم... إلى حضارة أخرى، على كوكب الأرض، فى زمن آخر.

غمغم (مشهور):

- فى المستقبل البعيد.

التفت إليه (شريف)، قائلاً:

- بل فى الماضى... الماضى السحيق... جداً.

وارتد الجنرال (دوايت) والمقدَّم (مشهور) مصعوقين...

لقد كان هذا مفاجأة...

مفاجأة ساحقة...

بحق...

"كيف يمكن أن تكون حضارتكم أقدم منا، وقد بلغت من التطوُّر شأناً، لم نبلغه حتى الآن ؟!..."...

ألقى (شريف) السؤال على صاحب الوجه المستدير فى دهشة، فأجابه هذا الأخير فى رفق:

- لقد أذهلنا هذا، فى أوَّل رحلة إلى زمن تاريخكم المعروف... أوَّل ما أدهشنا أنه لا ذكر لحضارتنا فى تاريخكم، ولا ذكر لحضارتكم فى تاريخنا، وكأن كل منا ليست لديه أية فكرة عن الآخر.

غمغم (شريف):

- هذا صحيح.

تابع صاحب الوجه المستدير، دون أن يتوقَّف عن تعليقه:

- فى البداية تصوَّرنا أننا قد انتقلنا إلى بعد آخر، يتطوَّر فيه التاريخ على نحو مختلف، ولكن علماءنا أكدوا أن المسار الثعبانى قد نقلنا أكثر من مليون عام إلى المستقبل... وكان بالنسبة لنا مستقبلاً مخيفاً، لا ذكر على الإطلاق فيه لوجودنا، مما يعنى أن حضارتنا قد انهارت وفنت، دون أن تترك خلفها أدنى أثر.. هذا أفزعنا بالتأكيد، خاصة وأن حضارتنا قد بلغت مرحلة هادئة، بلا أية صراعات، فلماذا فنت ؟!.. لماذا ؟!

تساءل (شريف):

- هل تريدوننا نحن أن نبحث عن هذا ؟!

هزَّ صاحب الوجه المستدير رأسه نفياً، وقال:

- لا بأس من المحاولة، ولكننا نعتقد أنه لا جدوى من هذا!... من الواضح أن سبباً عنيفاً أفنى حضارتنا، وأبادها من الوجود... ولقد حاولنا نحن اختيار زمن هبوطنا، ولكن المسارات الثعبانية كانت تقودنا إلى حيث تريد، لا إلى حيث نريد.

سأله فى توتر:

- لماذا تريدون الاتصال بحضارتنا إذن ؟!

أجابه فى سرعة:

- لنحذركُم... لنفتح عيونكم على ما تسيرون فيه... حضارتكم عنيفة قاسية... وحشية فى كثير من الأمور، وتسيئون إلى بيئة الأرض إساءات بالغة، وكأنكم تقتلون أنفسكم قبل أرضكم.

حدّق فيه (شريف) لحظات فى دهشة، ثم تساءل فى خفوت:

- وهل تعتقد أن أحداً سيصدق قصتى فى زمنى ؟!

بدت ابتسامة هادئة، على الشفتين الرقيقتين، وصاحب الوجه المستدير يقول:

- سنترك لهم على القمر ما يثبت قصتك.

"على القمر؟!..." ..

هتف بها الجنرال (دوايت)، فى توتر شديد، قبل أن يستطرد:

- إذن فبؤرة الاتصال تحت القمرية، هى وسيلة لإثبات وجودهم !!

أشار (شريف) بيده، قائلاً:

- ووسيلة ليثبتوا أنهم كانوا هناك قبلنا أيضاً.

غمغم المقدّم (مشهور):

- وإثبات مدى ما وصلوا إليه، فقاعدة تظل صالحة للعمل، بعد أكثر من مليون عام، لهو أمر مذهل بحق.

ران صمت ثقيل على المكان، بعد عبارة المقدَّم (مشهور) الأخيرة، قبل أن يتنحنح الجنرال (دونيت)، ويقول فى خفوت:

– مستر (فؤاد)... أريد منك وعداً.

"أى وعد طلبه ؟!..." ...

ألقى رئيس الجمهورية المصرى السؤال، على مدير مخابراته، فأجابه هذا الأخير فى سرعة:

– أن يبقى ما حدث سراً، ولا يخبر به حتى باقى أفراد الفريق.

صمت الرئيس لحظات، قبل أن يسأل:

– وهل منحه المهندس (شريف) هذا الوعد ؟!

أشار مدير المخابرات بسبَّابته، قائلاً:

– مقابل وعد آخر يا سيادة الرئيس... أن تتركه الحكومة الأمر[illegible]ية وشأنه، وألا تحاول إفساد حياته أو حياة زوجته.

تساءل الرئيس فى قلق:

– وكيف يمكنه أن يثق فى وعودهم ؟!

ابتسم مدير المخابرات، وهو يجيب:

– بأن منحنا نسخة من كل ما حدث، مع عينة من بشرته، وتسجي[illegible]ى، يروى فيه كل ما حدث بأدق التفاصيل .... وهم على علم بهذا.

هتف الرئيس:

– حقاً ؟!

اتسعت ابتسامة مدير المخابرات، وهو يجيب:

– إنه مصرى يا سيادة الرئيس.

"لست أثق فى هذا..." ...

قالها الدكتور (خالد) فى قلق، وهو يستقل تلك الحافلة، التى تحمل أفراد الفريق، لإعادتهم إلى منازلهم، فغمغمت (أشلى):

- مادام (شريف) لم يعد معنا، فهناك حتماً سر آخر، لم يبلغونا به.

قالت (إلهام) فى توتر:

- لقد طلبوا منا الحفاظ على سر حالة الانتقال عبر الزمن، ولكننى أعتقد أن الأمر يفوق هذا.

أشار (أنور) بيده، قائلاً:

- أتفق معك.

ران عليهم الصمت لحظة، وتطلعوا إلى الدكتور (أكرم)، الذى يرفض مجرّد مناقشة الأمر، ثم التفت (أشلى) إلى الدكتور (خالد) تسأله فى تردّد:

- قل لى يا دكتور (خالد)... ألديك امرأة هنا فى (القاهرة).

وابتسمت (إلهام)...

"حبيبى..." ...

هتفت بها (درو)، وهى تقفز لتتعلق بعنق (شريف)، الذى احتضنها فى حنان، وقبّلها فى حرارة، قائلاً:

- أوحشتنى يا حبيبتى.

هتفت:

- كنت أموت شوقاً إليك.

ابتسم وهو يمنحها قبلة أخرى، قائلاً:

- لقد عدت كما وعدتك.

احتضنته فى قوة:

- لا تفارقنى بعد اليوم... لست أحتمل العيش بدونك.

التقط نفساً عميقاً، وابتسم قائلاً:

- عملى لم ينته بعد، ولكننى أعدك ألا تشعرى بغيابى أبداً.

واحتضنته فى قوة أكثر...

"المشكلة أنه مصرى..." ...

هتف صاحب الصوت الخشن بالعبارة، فى عصبية شديدة، جعلت الجنرال (دوايت) يقول فى صرامة قاسية:

- وهل تكرهه لأنه مصرى، أم لأنك يهودى.

انتفض صاحب الصوت الخشن، هاتفاً:

- وما شأن الديانة بالجنسية ؟!

أجابه الجنرال فى صرامة أكثر:

- سل أقاربك، الذين يشترطون الأم اليهودية؛ لمنح الجنسية.

تراجع صاحب الصوت الخشن، والتقى حاجباه الكثان فى شدة، فتابع الجنرال بكل الصرامة والحزم:

- ذلك المصرى اختاره القدر؛ ليكون أهم بشرى على وجه الأرض، فى هذه الحقبة من الزمن... البشرى الوحيد، الذى يربط الماضى بالحاضر... وربما بالمستقبل أيضاً... ثم إنه وسيلتنا الوحيدة للاتصال بأصولنا القديمة... بحضارة من كانوا هنا قبلنا... من سبقونا على الأرض، ولم يتركوا لنا ما نعرفهم به... حضارة الذين... قبلنا.

غمغم صاحب الصوت الخشن فى عصبية:

- ولكنه سيظل مصرياً.

صمت الجنرال لحظات، وهو يرمقه بنظرة مقت، لم يحاول إخفاءها، ثم قال فى صرامة:

- مصرى صار يمتلك قدرات خارقة، جعلته تقريباً غير قابل للفناء، وطاقم علمائنا كله يدرس حالته، ويحاول مجرّد فهمها ... وبدونه لن نعلم كيف فنت حضارة سبقتنا، دون أن تترك خلفها أثراً، بعد أن فاق تطوّرها تطوّرنا ألف مرة ... قف احتراماً يا رجل؛ فهذا المصرى، الذى تستنكر وجوده، هو اليوم أكثر البشر أهمية، وربما عبر التاريخ كله ... قف وأد التحية ... وبكل الاحترام.

قالها وكيانه كله يرتجف انفعالاً وحماساً...

فلأوّل مرة، يدرك البشر أنهم لم يكونوا أوّل مخلوقات عاقلة سكنت الأرض...

لأول مرة ينكسر غرورهم في قسوة ...

فهناك الأوائل، الذين سبقوهم...

والذين فاقوهم...

والذين فنوا...

الأوائل ... الذين كانوا.

***

- تمت بحمد الله -

الرحاب ٢٣/٦/٢٠١٤م

الذين كانوا



الحياة لغز كبير، والتاريخ لغز أكبر..
أمور كثيرة نعرفها.. وأكثر نجهلها..
فى كل قارة على الأرض يكمن لغز ما..
أهرامات.. أحجار.. خرائط .. تنبؤات فلكية..
كلها ألغاز وضعها الذين سبقونا؛ لنبحث فيها..
الذين علموا..
والذين كانوا.

د. نبيل فاروق

